مدارس الثقافة العربية فى المغرب العربى
١٨٣٠ – ١٩٥٤

(دراسة مركزة على الجزائر)

دكتور أبو القاسم سعد الله *

قبل الاحتلال الفرنسى لبلدان المغرب العربى كانت الجزائر وتونس تابعتين للدولة العثمانية بينما ظل المغرب بعيدا عن نفوذ هذه الدولة . ورغم هذا الوضع السياسى المختلف فان الوضع الثقافى فى الاقطار الثلاثة كان متشابها او واحدا ، اذ المعروف ان العثمانيين لم يتدخلوا فى توجيه الحياة الثقافية فى البلدان التابعة لهم ، ومن ثمة كانت الثقافة العربية على عهدهم فى كل من الجزائر وتونس تمتاز بالركود ، ونفس الظاهرة نجدها فى المغرب رغم انه كان خارج اطار الدولة العثمانية .

وحين نجحت الحملة الفرنسية على الجزائر كان لها اثر كبير على الحياة السياسية والثقافية فى الاقطار الثلاثة المذكورة لا يشبهه الا ذلك الاثر الذى تركته الحملة الفرنسية على مصر بالنسبة للمشرق العربى ، حقا ان احتلال فرنسا لتونس قد جاء بعد خمسين سنة من نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر ، وان احتلالها للمغرب قد جاء بعد ذلك بثمانين سنة ، ولكن الوجود الفرنسى فى قلب المغرب العربى (الجزائر) سنة ١٨٣٠ قد قلب الموازين فى المنطقة . فقد اهتزت النظم السياسية فى المغرب وتونس نتيجة احتلال الجزائر ، مما جعل القائمين على البلدين يسرعون بادخال اصلاحات على الجيش والادارة والمالية وما الى ذلك ، ومن ناحية اخرى اهتزت ايضا الاوضاع الثقافية فى كل من البلدين فاعيد النظر فى نظام التعليم ، وادخلت المطبعة والجريدة والكتاب ، وارسلت البعوث الى اوربا ، وخاصة فرنسا ، وتحركت المؤسسات الدينية ، وهكذا كان احتلال فرنسا للجزائر اشارة الخطر التى ايقظت المغرب وتونس .

(*) أستاذ بمعهد العلوم الاجتماعية – جامعة الجزائر .

ولكن يقظتهما كانت مؤقتة وغير فعالة ، ذلك ان الاستعمار الفرنسى سرعان ما استحوذ ايضا عليهما ، وكان لهذه العملية اثر بالغ على الثقافة العربية فى البلدين ، ولكنه اثر لم يصل الى الحد الذى وصله فى الجزائر ، ويعود ذلك فى نظرنا الى عدة اسباب ، اولها ان جامع القرويين فى المغرب وجامع الزيتونة فى تونس قد حصن البلدين ضد فعالية الاستعمار فى كل منهما . ووجود هاتين المؤسستين الكبيرتين يعود ـ كما هو معروف ـ الى ما قبل احتلال فرنسا للجزائر ، ولكن استمرار وجودهما بعد الاستعمار الفرنسى جعل دورهما اكثر ايجابية . اما الجزائر فلم تكن تتمتع بمؤسسة دينية ـ تعليمية عريقة كالتى ذكرناه لا قبل ولا بعد الاحتلال الفرنسى لها . وهذا فى نظرنا قد ساعد على تعريض الثقافة العربية فيها الى خطر التشويه بل الذوبان .

وثانى هذه الاسباب كون الاستعمار الفرنسى فى المغرب وتونس قد اتخذ شكل « الحماية » اما فى الجزائر فقد تجاوز كل انواع الاستعمار المتعارف عليها حين جعل هذا البلد جزاء لا يتجزأ من الوطن الام (فرنسا) وهذا يعنى انه بالنسبة للمغرب وتونس قد اعترف لهما بكيان « وطنى » تمثل فى الدين واللغة والحكومة والتاريخ ، بينما لم يعترف للجزائر الا بالدين وكان لهذا التصرف السياسى انعكاسات ثقافية خطيرة ، فالثقافة العربية اساسا معترف بها فى المغرب وتونس بينما اعتبرت اجنبية فى الجزائر ، حقا ان هذه الثقافة قد تعرضت لعدة معاكسات حتى فى المغرب وتونس ولكن الوضع السياسى هناك ووجود المؤسستين المذكورتين فيهما ووعى النخبة فى كل منهما جعل الثقافة العربية تتحصن وتقاوم وتنتصر .

وثالث الاسباب ان الاستعمار الفرنسى قد حل بالجزائر وهو شاب فكان قويا فى معاملته طائشا فى احكامه مخربا فى غضبه . اما فى المغرب وتونس فقد حل لهما وهو فى كهولته وشيخوخته . فكان عاجزا عن التغيير الكبير وكان تصرفه هناك اكثر تبصرا . وفى هذا الصدد نذكر ان تونس قد مرت بفترة اصلاحات سياسية وتعليمية وثقافية قبل ان يستعمرها الفرنسيون فكان ان واجه هؤلاء نخبة وطنية واعية جعلت وجود الاستعمار نفسه على مواقع الدفاع لا الهجوم ، وكذلك كان الحال بالنسبة للمغرب الذى لم يحل به الاستعمار الا عشية الحرب العالمية الاولى ، فقد كانت فرنسا عندئذ ضعيفة من عدة وجوه فلم تستطع ان تترك بصماتها القوية على الحياة الثقافية العربية هناك .

ولهذه الاسباب وغيرها ، راينا ان نقصر البحث على مدارس الثقافة العربية فى الجزائر باعتبارها البلد الذى تعرضت فيه الثقافة العربية الى هزة عنيفة كادت تقضى عليها . ومع ذلك فان عوامل المقارنة لحالات الثقافة العربية فى الاقطار الثلاثة وكذلك عناصر التاثر والتاثير ، تظل قائمة وهى جميعا تدعو الباحثين الى تناولها بالدرس والاستنتاج ، وكم يكون ممتعا لو تناول احد الدارسين بالمقارنة آثار الحملة الفرنسية على مصر فى المشرق العربى وآثار الحملة الفرنسية على الجزائر فى المغرب العربى سيما فى المجالات الثقافية .

* * *

يتناول هذا الموضوع تطور الثقافة العربية فى الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسى (١٨٣٠ ـ ١٩٥٤) ، وقد بدانا بالاحتلال الفرنسى لان الثقافة العربية قد تاثرت به وانتهينا بالثورة لان هذه الثقافة كذلك قد تاثرت باحداثها . وبعد الدراسة وجدنا ان الثقافة العربية فى الجزائر خلال الفترة المذكورة قد مرت باربع مراحل كبيرة تمثل كل مرحلة منها مدرسة بذاتها ، لها خصائصها ووسائلها واهدافها ، (١) وهى المدرسة التقليدية ، (٢) المدرسة المخضرمة ، (٣) المدرسة المستنيرة ، والمدرسة الاصلاحية . وتجب الملاحظة الى اننا نستعمل هنا كلمة « مدرسة » بمعنى اتجاه وليس بمعنى تيار فلسفى او نظرى . ومن اجل ذلك استعملنا (المدارس الثقافية) بدل (المدارس الفكرية) .

١ ـ المدرسة التقليدية ١٨٢٠ ـ ١٨٤٨

يمتد زمن المدرسة التقليدية من أواخر العهد العثمانى الى حوالى ١٨٤٨ . ففى هذا التاريخ (ديسمبر ١٨٤٧) انتهت مقاومة الامير القادر فى غرب ووسط الجزائر (١) ، كما انتهت مقاومة الحاج احمد ، باى قسنطينة فى شرقها (٢) . وبذلك اسدل الستار على فترة بلغت ثمانى عشرة سنة من عمر الاحتلال . وقد شهدت هذه الفترة ، على قصرها ، صراعا حادا بين

---

(١) أنظر كتابنا (حياة الأمير عبد القادر) ترجمة لتأليف هنرى تشرشل ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٤ .

(٢) هناك فصل خاص بحروب الحاج أحمد فى كتابنا (تاريخ الجزائر الحديث : بداية الاحتلال) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ .

الحضارة الغازية (الاوربية) وبين الحضارة المغزوة (الاسلامية) . فقد ايقظت الحروب المتواصلة والعلاقات الاجتماعية والسياسية ، والحكم المباشر ، الطبقات الاجتماعية الجزائرية من وهدتها وجعلتها تعيش الاحداث الجارية عندئذ ، كل فى مستواه العقلى والطبقى . ولكن المجتمع الجزائرى لم يكن مستعدا لمواجهة الصدمة فبدات قطاعاته تنهار امام الحضارة الجديدة . ذلك ان الفرنسيين لم يصطحبوا معهم المدافع والبنادق فقط ولكنهم اصطحبوا معهم ايضا المطبعة والتراجمة والمستشرفين ، واهم من ذلك كله هو انهم جاؤوا بنظمهم وافكارهم وتقاليدهم . ومع المطبعة تأسست الجريدة ، ومع التراجمة جاءنقل الافكار من والى العربية ، ومع المستشرفين جاءت العناية بآثار قدماء الجزائر من جهة وآثار العرب والمسلمين عامة (١) اما نظم وافكار وتقاليد الفرنسيين فقد ادت الى زعزعة كثير من العقائد القائمة عندئذ والى بداية تقليد المغلوب للغالب . ولا سيما من اهل المدن ومن اهل الريف الذين نزحوا الى المدن .

فى هذا الجو كانت تعيش طائفة من المثقفين تلقت كل ثقافتها التقليدية وتكوينها العقلى والعاطفى فى الثلاثين سنة الاخيرة من العهد العثمانى . ولم يكن فى وسع هذه الطائفة ان تتمثل وتهضم هذه الحضارة الجديدة ، فقد كان تكوينها التقليدى قويا لدرجة انه اصبح يمثل حاجزا دون تأثرها بما يجرى حولها على المستوى العقلى . وبالاضافة الى ذلك ، ان هذه الطائفة المثقفة المعاصرة لبداية الاحتلال وجدت نفسها فى الواجهة الحربية ، سواء كان افرادها من رجال الدين او من رجال الدنيا . فالمثقفون الجزائريون خلال الثمانى عشرة سنة الاولى من الاحتلال كانوا محاربين او مناضلين بلغة اليوم(٢) وعندما فشلوا فى الغلبة على الحضارة الجديدة هاجروا من ديارهم متوجهين الى قواعد الثقافة التى تلائم تكوينهم ، وهكذا استقر عدد منهم فى تونس والمغرب ، واستقر الآخرون فى المشرق . وكانت هجرتهم فى الغالب عن كره ، فالامير عبد القادر اخذ معه طائفة من المثقفين ، وارغم الاحتلال طائفة اخرى

---

(١) درسنا هذا الموضوع بتوسع فى بحثنا عن(منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر) المنشور فى مجلة (الأصالة) ، عدد ١٤،١٥ ، السنة الثالثة ، ١٩٧٣ ، ص ٧ – ٢٦ .

(٢) يتضح هذا الموقف من محاضرتنا عن(مساهمة بعض الجزائريين فى الحضارة الإسلامية) المنشورة ضمن (محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامى) ، وزارة التعليم الأصلى والشئون الدينية ، الجزائر ، ١٩٧٢ ، الجزء الرابع ، ص ٩٥ – ١٤٦ (المحاضرة والمناقشة) .

منهم على الهجرة (١) ولم تحن سنة ١٨٤٨ حتى لم يبق فى الجزائر من المثقفين سوى « من لا انياب له » ، وايضا من لا قلم له .

يضاف الى ذلك موقف الفرنسيين من الثقافة الوطنية ، ذلك انهم منذ اللحظات الاولى للاحتلال اخذوا فى هدم المساجد والكتاتيب وبعض الزوايا التى كانت كلها تقوم بنشر التعليم ، والتى كان منها يتخرج المفتون والقضاة والمدرسون والفقهاء والعلماء . وكانت الدعاوى التى استندوا اليها فى ذلك على انواع ، فهذا المسجد يوشك على الانهيار ، وهذا الكتاب غير صحى ، وهذه الزاوية تعوق مد الطرق العامة (٢) ، الخ . ولكى تتم الحلقة حول الثقافة الوطنية استولى الفرنسيون على الاوقاف الاسلامية ، بما فى ذلك املاك الحرمين وسبل الخيرات ، وجعلوها من املاك الدولة .

كذلك اخضعوا كل الشئون الدينية الى حكامهم وادارتهم . فتعيين رجال الدين ، وتحديد المواسم الشرعية ، ورخص التدريس ، كلها اصبحت من اختصاصهم . ووضع بعض علمائهم ، مثل بربروجر ، ودى سلان ، وبرينى ، ايديهم على المكتبات الخاصة ، بالاضافة الى مكتبات الزوايا والمساجد . ونذكر من هذه مكتبة الامير عبد القادر التى وقعت فى ايدى الفرنسيين بعد حادثة الزمالة (٣) ، ومكتبة ابن الفكون وباش تارزى بقسنطينة ،ومكتبات مساجد تلمسان ومعسكر، ومكتبات الخاصة بالعاصمة بعد ان حكموا بنفى اصحابها مثل حمدان خوجة ، وابن العنابى ، وابن الكبابطى ، وغيرهم من علماء المدرسة القليدية .

ويمثل هذه المدرسة عدد من المثقفين ، نذكر منهم الامير عبد القادر ،

---

(١) فى كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٩ ، فصل عن هذا الموضوع .

(٢) ألبير ديفوكس ، (المؤسسات الدينية فى مدينة الجزائر القديمة) ، الجزائر ، ١٨٧٠

(٣) وقعت سنة ١٨٤٣ ، وكان الدوق دومال هو قائد الفرقة الفرنسية ، قد أخذ معه عددا من الكتب الخاصة بالأمير إلى شانيى على بعد قريب من باريس حيث توجد هذه الكتب والأوراق إلى اليوم .

وحمدان خوجة (١) ، وابن العنابى (٢) ، وابن الكيابطى (٣) ، وابن رويلة (٤) ونلاحظ ان جميع هؤلاء قد هاجروا او نفوا نفيا . ومعنى ذلك انهم تركوا فراغا كبيرا فى الاوساط المثقفة ، واصبحت البلاد بعدهم بدون نخبة تدافع عن مصالحها الذاتية والحضارية . ذلك ان الذين بقوا بعدهم كانوا — كما سنرى — بدون شخصية حكيمة قوية ، بله السياسية . فبعدزعماءالمدرسة التقليدية عن الميدان الثقافى قد اسدل فى الواقع الستار على المرحلة الاولى فى علاقة الجزائر بالاحتلال على المستوى الفكرى .

ويمثل هؤلاء الكتاب تيارا دينيا — دنيويا معا . فحمدان خوجة كانت تغلب على كتاباته الروح الدنيوية . فهو كبرجوازى من حضر مدينة الجزائر كان يتناول فى كتاباته ، سواء منها المهاجمة للاحتلال او التى كتبهـــا فى اسطانبول ، موضوعات اجتماعية اقتصادية ذات طابع حضارى — انسانى ويفيض كتابه (المرآة (٥) بالافكار السياسية التى استقاها من واقع العصر ومن تجاربه الشخصية ، وهى الافكار التى جعلته يتعرض للتشريد والنفى والمحاكمة . واهم ما طرحه خوجة عندئذ (١٨٣٣) هـــذه عدم تعايش

---

(١) هناك عدة دراسات ظهرت عن حمدان خوجة ودوره السياسى . منها قسم فى كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) ص ٣٧ — ٤٤ . ومنها دراسة السيد جورج ايفير ، « عن حمدان ابن عثمان خوجة » فى (المجلة الافريقية) ، سنة ١٩١٣ ، ص ٩٦ — ١٣٨ ، بالفرنسية . وكتاب محمد بن عبد الكريم (حمدان بن عثمان خوجة الجزائرى ومذكراته) ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، كما أننا تناولناه فى عدة مناسبات أخرى

(٢) تعرضت له فى دراستى عن (مساهمة بعض الجزائريين فى الحضارة الإسلامية) ، أنظر الصفحة الرابعة من المقال هامش ٢ .

(٣) تولى الافتاء المالكى فى عهد الاحتلال ، وعندما استولى الفرنسيون على الأوقات الإسلامية سنة ١٨٤٣ احتج فاقالوه ونفوه من الجزائر . وقد مات فى الاسكندرية ولا نعرف تاريخ وفاته الآن . كان بالإضافة إلى الفقه شاعرا رقيقاً .

(٤) كان كاتبا لدى الأمير عبد القادر : وهو الذى حرر له التنظيمات الخاصة بالجيش باسم (وشاح الكتائب) وقد نشرها محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ١٩٦٨ . وهاجر ابن رويلة إلى المشرق قبل الأمير ، ومات فى الشام حوالى ١٨٥٥ .

(٥) الغالب أنه كتبه أصلا بالعربية ثم ترجم إلى الفرنسية . وضاع النص العربى وبقيت الترجمة التى ظهرت فى باريس سنة ١٨٣٣ والتى قام بها صديق خوجة السيد حسونة دغيز الطرابلسى . وقد ترجمه إلى العربية ونشره محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، سنة ١٩٧٢ ، وقام العربى الزبيرى أيضاً بترجمته إلى العربية وهو تحت الطبع عند الشركة الجزائرية . ولحمدان خوجة كتب وأبحاث أخرى ، بعضها نشر بالعربية أثناء حياته . انظر عن كتاب (المرآة) أيضاً عبد الجليل التميمى (بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٢ ، ص ١٣١ — ١٩٤ .

الاستعمار والقومية المحلية ، وصلاحية الحضارة الاسلامية امام تطـور الحضارة الاوربية ، ووجوب يقظة وتطور العالم العربى والاسلامى . ومهاجمة المتعصبين والمترددين فى الاخذ بنظم الحضارة الحديثة . فحمدان خوجةكان كاتبا سياسيا ومصلحا اجتماعيا ورائدا لفكرة القومية . وهو لذلك استخدم النثر فى جميع كتاباته . ولم ينظم من الشعر سوى بعض الابيات الضعيفة المتكلفة .

أما الامير عبد القادر فلم يترك اثرا يعبر عن فلسفته فى النظام السياسى والاصلاح الاجتماعى ولكنه عبر عن هذه الامور فى مواقفه وافعاله (١) . وكانت كتاباته النثرية تعبر عن فكرة التصوف والعمل الروحى ، أما اشعاره فقد عبر بها عن فروسيته ومحتده وعواطفه الشخصية . ولكننا نلاحظ ان معظم نثره قد كتبه عقب ١٨٤٧ . اى بعد ان ابتعد عن ميدان المقاومة . اما اشعاره فمنها ما كتبه اثناء حروبه ضد الفرنسيين . ومنها ما كتبه بعـد ١٨٤٧ . ويتمثل نثر الامير قبل ١٨٤٧ فى رسائله الكثيرة التى تبادلها مـع القواد الفرنسيين وغيرهم ، وفى اوامره وتعليماته لجيشه وخلفائه ورؤساء القبائل . وفي تنظيمات جيشه المعروفة « بوشاح الكتائب » والمنسوبة الى كاتبه قدور بن رويلة . وهذه الرسائل والتعليمات ، لو جمعت ، لجاءت فى بضع مجلدات ولوجد فيها الباحثون خبايا فكر الامير فى نظم الحكم وتطور المجتمع والموقف من الحضارة والدين ونحو ذلك .

وتتغلب الروح الدينية على ابن العنابى ، ولكنه كان يلفها فى ثياب اصلاحية دنيوية . ففى كتابه المسمى « السعى المحمود فى نظام الجنود » دعا الى الاخذ باسباب الحضارة الحديثة فى نظم الجيش وتوفير السـلاح الفعال . كما عرض بالاستبدادفى الحكم ودعا الىالعدل نحو الرعية والشورى فى الاحكام . وقد نفى ابن العنابى عن الاسلام روح التعصب والجمود وطالب بتقليد الحضارة الغربية فيما فيه فائدة للمسلمين . ولكنه تأثر بمهنته فى الفقه والافتاء فملأ كتابه بالشواهد من القرآن والحديث والامثال العربية ومواقف رجال الدولة الاسلامية . فنثره نثر فقهى دينى رغم ان هـدفه

---

(١) بالإضافة إلى ترجمتى لكتاب تشرشل المذكور فى الصفحة الثالثة من المقال ، هناك كتاب الأمير محمد باشا (تحفة الزائر) المطبوع مرتين الأولى فى الاسكندرية ١٩٠٣ ، والثانية فى سورية ١٩٦٤ ، جزءان فى مجلد . وللأمير ديوان شعر مطبوع بعنوان (نزهة الخاطر) وله كتاب (المواقف) فى التصوف فى أربعة أجزاء ، و (ذكرى العاقل) فى الفلسفة ، و (المقراض الحاد) الخ . وكلها مطبوعة .

الاصلاح الاجتماعى والنقد السياسى لاوضاع الخلافة العثمانية التى كان قد سادها الجمود الفكرى والتخلف الاجتماعى والتى كانت نهبا بين الـــدول الاجنبية . ولا نكاد نعثر لابن العنابى على شعر ، ولو فى شكل ابيات للمناسبة شأن مثقفى عصره (١) .

هؤلاء هم ممثلو المدرسة التقليدية . وهناك آخرون يأتون فى المرتبة الثانية من حيث المساهمة والاهمية . منهم قدو بن رويلة(٢) وابن الكبابطى وكلاهما مقل فى انتاجه ، وكلاهما جمع الشعر الى النثر ، ولكن يظهر ان الاخير كان اكثر تفقها فى الدين . وكلاهما مات منفيا خارج الجزائر .

وقد حافظ زعماء هذه المدرسة على متانة الاسلوب وجزالة التركيب اما موضوعاتهم فكانت القضايا السياسية والاجتماعية التى طرات علـى بلادهم منذ الاحتلال من جهة ، وعلى العالم الاسلامى منذ حروب نابليون وظهور القوميات من جهة اخرى . وقد اضاف الامير عبد القادر دراسات فى التصوف ، ولعل ابن الكبابطى وابن العنابى قد كتبا ايضا فى مسائل دينية محضة ، لان كليهما كان معنيا متمكنا من شئون دينه وعصره معا .

ولكن المدرسة التقليدية قد انتهت بهجرة اصحابها ونفيهم فى نهاية الاربعينات من القرن الماضى . وبذلك انتقل تاثيرهم الى خارج الجزائر او انتهى معهم . فقد مات ابن العنابى فى مصر سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥٠ م ومات خوجة فى اسطانبول حوالى ١٨٤٥م ، ومات الامير عبد القادر فى دمشـــق سنة ١٨٨٣م . ولا ندرى بالضبط متى انتهت حياة قدور بن رويلة ولا حياة ابن الكبابطى ولكن الذى لا شك فيه هو ان الجزائر قـــد عانت من غيبتهم وغيبة امثالهم فراغا هائلا فى الثقافة الوطنية ، ذلك ان بعدهم قد وضع حدا لعهد قديم وفتح المجال امام عهد جديد .

---

(١) له أيضاً فهرست تعرف (بثبت الجزائرى) تحدث فيها عن شيوخه ودراساته . وما تزال مخطوطة .

(٢) لابن رويلة أيضاً رسالة فى الفقه والسياسة تبادلها سنة ١٩٤٣ مع مصطفى بن الكبابطى ، أفتى فيها بوجوب هجرة المسلمين من البلاد التى تغلب عليها الكفار . وهى ما تزال مخطوطة . وهى فى ثمانى ورقات ، وعليها تعليق لابن الخفاف ، مفتى مدينة البليدة .

٢ ـ المدرسة المخضرمة (١٨٤٨ ـ ١٨٨٠)

وهذا العهد الجديد هو عهد المدرسة المخضرمة الذى استمر حوالى جيل كامل . وكانت المدرسة المخضرمة اضعف المدارس انتاجا واقلها ارتباطا بالفكرة الوطنية ، وابعدها عن الدعوة الى النقد السياسى والاصلاح الاجتماعى .

فخلال هذا العهد احتل الفرنسيون بقية الجزائر ، ولا سيما مناطق جرجرة والصحراء . واشتدت قبضة المستوطنين على المقاليد الاقتصادية والموارد الطبيعية ، وزحزحت القبائل والاعراش عن اراضيها لتوزعها السلطات على المستوطنين الجدد . وانتشرت (المكاتب العربية) (١) في كل مكان تحكم العامة بقبضة من حديد وتستغل جهلها وخرافيتها اشنع استغلال وتتجسس على كل نشاط سياسى يمكن ان يقوم به اى فرد ، وعلى كل حركة جهاد يمكن ان تقوم بها طريقة من الطرق الدينية . وبالاضافة الى ذلك كانت المكاتب العربية تغذى الخلافات الفردية ، والنعرات القبلية والتنافس على المناصب ونحوها ، لكى تظل هى سيدة الموقف تتدخل عند الحاجة ، وتحكم باسهل الطرق .

ورغم كل ذلك فقد شهدت البلاد ثورات مستمرة . حقا انها لم تكن فى عنف وقوة ثورة الامير او ثورة الحاج احمد ، ولكنها كانت تعبيرا على السخط العام واستمرارية المقاومة . ففى ١٨٤٩ وقعت ثورة بالشرق الجزائرى وهى المعروف بثورة الزعاطشة ، وقد تزعمها الشيخ ابو زيان احد اتباع الامير عبد القادر ، وساعده زعماء الاوراس وزعماء جرجرة الدينيون ، كما ساندته زعماء الصحراء . وخلال السنوات ١٨٥٠ ـ ١٨٥٧ ظلت الثورة مشتعلة فى جبال جرجرة ومنطقة البابور . وكان من قوادها الشيخ بوبغلة وللاقاطمة وقد لعبت فيها الطريقة الرحمانية دورا ايجابيا . ومنذ بداية الستينات شهدت الصحراء الجزائرية ، ولا سيما صحراء وهران ، ثورات مستمرة على راسها اولاد سيدى الشيخ ، وقد استمرت هذه الثورات فى عنف تارة وهمود تارة اخرى الى بداية القرن الحالى . وكان من رجالها سى الاعلى

---

(١) (المكتب العربى) هيئة صغيرة انشأها الفرنسيون فى كل المدن والقرى الجزائرية . وكان يرأسها فرنسى برتبة عقيد فى الغالب ، وتضم مساعداله ، ومترجماً وشاوشا . وكانت عبارة عن خلية تجسس على الأهالى وأداة فرقة وشتآن بينهم . وقد انتهى العمل بها سنة ١٨٧٠ بالنسبة للشمال . بينما ظلت موجودة فى مناطق الجنوب العسكرية .

وبوعمامة ، وكلاهما من رجال الدين . والثورة الاخيرة فى هذه الفترة هى ثورة ١٨٧١ المعروفة بثورة المقرانى ، وهى التى لعبت فيها ايضا الطريقة الرحمانية ، وعلى راسها الشيخ الحداد وابنه سى عزيز ، دورا فعالا ، والمعروف ان هذه الثورة قد عمت الشرق الجزائرى والصحراء وجزءا كبيرا من وسط البلاد . وقد كان لفشل هذه الثورة عواقب وخيمة على السكان الجزائريين . ذلك انه ادى الى مصادرة العديد من الاملاك والاراضى ، والى صدور القوانين الاستثنائية الرادعة المعروفة (بالاندجينا) وفرض الضرائب الثقيلة ، وانشاء المحاكم الجائرة ، وسن ما يعرف بالمسئولية الجماعية عند وقوع حريق أو قتل او اعتداء من جانب فرد جزائرى على مستوطن فرنسى او على املاك الدولة .

واذا كان الفعل الفرنسى ورد الفعل الوطنى على هذا النحو طيلة اكثر من جيل ، فماذا نتوقع ان تكون عليه حالة الثقافة الوطنية ؟ منذ اوائل الاحتلال تنبهت السلطات الفرنسية الى طريقة تكسب بها ود مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين لا خطر منهم على المستوى السياسي والاجتماعى فقد شرع كلوزيل ، ثم قلده خلفاؤه ، فى اختيار عناصر المثقفين النابهين من كل مدينة وارسالهم الى باريس للقيام باتصالات وجولات وحضور حفلات منظمة . وكان يرافق هؤلاء فى العادة مرافقون من زعماء المكاتب العربية الذين تعرفوا على تقاليد البلاد واتقنوا لغتها . وبعد صقل هؤلاء المثقفين و « غسل مخهم » فى متاحف ومعارض ونوادى باريس وحفلاتها يعودون يلهجون بحب فرنسا وتقدمها وجمال مدنها ، ومحاسن اخلاق اهلها ، الخ فتكون النتيجة كسب هذه الطاقة من المثقفين والتاثير بهم على بقية السكان (١) .

ومن جهة اخرى كشفت الدراسات المختلفة التى قام بها الفرنسيون للمجتمع الجزائرى مدى اهمية الدور الذى تلعبه الطرق الدينية على عقلية اتباعها . كما كشفت ان معظم الثورات كان وراءها (شبكة مخابرات) تابعة لاحدى الطرق التى ينتشر اتباعها فى اصقاع البلاد . واول من نبه الى هذه الحقيقة ، حسبما تذكر المصادر الفرنسية ، هو الضابط دى نوفو DE NEVEU الذى قام بدراسة حول الموضوع خلال الاربعينات من القرن

---

(١) أنظر دراستى عن (محمد الشاذلى القسنطينى) ، الشركة الوطنية الجزائرية ، ١٩٧٢ ، فهو من بين الذين شملتهم هذه الحركة .

الماضي (١) . وبناء على ذلك قامت المصالح الفرنسية المختلفة بمحاولة التأثير على زعماء الطرق الدينية وشرائهم ان صح التعبير . وقد نجحت تدريجيا فى التأثير على التيجانية ، وعلى فرع الزيبان للرحمانية ، وعلى زعماء الطيبية فى الغرب ، وعلى الحنصاليين فى نواحى قسنطينة ، بل حتى على زعماء القادرية والدرقاوية . ثم ادت ثورة ١٨٧١ الى اضعاف الطريقة الرحمانية عامة وجعلها فى صف المحايدين ان لم تكن فى صف الموالين (٢) .

وبالاضافة الى كسب عناصر المثقفين وزعماء الطرق الدينية عملت السلطات الفرنسية على كسب رجال « البيوتات الكبيرة » او اهل « الخيام الواسعة » حسب التعبير الشائع فى ذلك الوقت . كان الفرنسيون يفرقون بين رجال الدين ورجال الدنيا ، او الارستقراطية الدينية (المرابطون) والارستقراطية المحاربة (الاجواد) . وهم يعرفون ان الامير عبد القادر قد اعتمد فى تكوين دولته على الطائفة الاولى ، بينما اعتمد الحاج احمد على الطائفة الثانية . ولكن مصلحة الفرنسيين كانت فى كسب الجميع . لذلك عملوا على تمكين بعض العائلات ذات النفوذ الواسع ، فامدوها بالارض وساعدوها على بسط جاهها واعتبارها . واعطوها صلاحيات اجتماعية واقتصادية نحو السكان ، وساندوها عند الحاجة . ونذكر من هؤلاء عائلات ابن قانة ، والمقرانى ، وابن داود وغيرها . اما فى المدن فقد نجح الفرنسيون ايضا فى كسب عناصر البرجوازية الوطنية التى لم تهاجر . وقد ارتبطت مصالح هذه الطبقة بمصالح الفرنسيين ، ولكن قوة المستوطنين الاقتصادية لم تتح للبرجوازية الوطنية الفرصة لكى تنمو وتزدهر ، لذلك ظلت سلطتها محدودة ، وعددها قليلا ، ومفعولها ضئيلا .

وقد احتكر الفرنسيون التعليم والمناصب الدينية ، وهى مجالات الظهور والعمل بالنسبة لاصحاب الثقافة الوطنية . ونتيجة الحروب المتوالية وموقف الفرنسيين من المساجد والزوايا حدثت نكسة كبرى فى ميدان التعليم . ذلك ان الحروب ادت الى ضعف مستوى التعليم وجعله

---

(١) دونيفو (الطرق الدينية عند مسلمى الجزائر) ، الجزائر ١٩١٣ ، الطبعة الثالثة . وهو كتيب صغير الحجم ، لكن لفائدته ، طبع عدة مرات أولا فى باريس سنة ١٨٤٥ ، وثانيا فى باريس أيضاً سنة ١٨٤٦ .

(٢) ينسب الفرنسيون إلى الشيخ الحداد ، الزعيم الروحى لثورة ١٨٧١ ، أنه أوصى اتباعه ، وهو على فراش الموت ، بالخضوع للسلطة الفرنسية . انظر « اعلام » الشيخ الحداد ، طبعة قسنطينة الحجرية سنة ١٢٩٠ هـ ، وهو من ثلاث صفحات .

فى المرتبة الثانية من الاهمية ، كما ان العلماء قد حملوا السلاح او هاجروا او التزموا بيوتهم . وادى تاميم المساجد ودور العلم والمكتبات الى شغورها من النشاط الثقافى الذى كانت فى الماضى ميدانه ، ولم يعد العلماء قادرين على ممارسة وظيفتهم الدينية والعلمية كما كانوا فى الماضى ، لان السلطات الفرنسية هى التى اصبحت تختار من يقوم بهذه الوظائف . وهى بدون شك لا تختار الا الضعيف الشخصية ، الخامل الذكر ، القليل العلم .

ولكن السلطات الفرنسية لم تترك المجال فارغا تماما . فقد استمر الاهالى فى تحفيظ ابنائهم القرآن الكريم على الطريقة التقليدية . ومن جهة اخرى اسس الفرنسيون بعض المدارس الابتدائية والمتوسطة التى اختلف اليها بعض ابناء البرجوازية الجزائرية . كما ادخلوا مادة اللغة العربية فى بعض مدارسهم فى تلمسان والعاصمة وقسنطينة . وفى سنة ١٨٥٠ انشأوا ثلاث مدارس فى المدن المذكورة لتحتضن الدراسات التقليدية الموجهة لتخريج موظفين تحتاجهم الادارة الفرنسية كالمفتى والقضاة والعدول ، والتراجمة ومعلمى مادة العربية ، الخ . وكان المسيرون لهذه المؤسسات مستشرقين فرنسيين يعرفون قواعد اللغة العربية لكنهم يجهلون اسرارها ، ويدرسون منها الاشعار والامثال ولكنهم ابعد ما يكونون عن الذوق الادبى لهذه اللغة . فكانوا يعلمون العربية بالفرنسية . ويعتبرون اللغة اداة وظيفية لاحسن فيها ولا ذوق ولا جمال (١) . لذلك لا نستغرب ان تضعف الملكة وينخفض الانتاج ويهبط الحس الادبى لدى الجزائريين الذين تخرجوا من هذه المدارس ولم يكن فى وسعهم ان يعوضوا هذا النقص بالقراءة فى كتب الاقدمين والمشاركة فى مسايرة النهضة بالمشرق العربى ، لان الجزائر كما لاحظنا قد دخلت منذ ١٨٤٨ فى عهد من العزلة تكاد لم تعرفه فى جميع عصورها الحديثة .

ويمثل هذه المدرسة المخضرمة طائفة من الكتاب والعلماء الذين جمعوا الى التقاليد القديمة صلاتهم بالحضارة الغربية ولو فى صورة ضعيفة ، كما جمعوا الى معارفهم القديمة وظائف جديدة تلقوها من السادة (الفرنسيين) الجدد . فعلوم هذه الطائفة ظلت على مستوى بسيط لانها لم تتدعم بنماذج معاصرة حية ولا بحركة نقدية ناهضة ولا كانت الحاجة تدعو الى الطموح والدربة والتمكن والعمل الشاق . فالوظائف المعروضة آنذاك كانت لا

---

(١) أنظر الدراسة التى كتبها هنرى ماشى بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر ١٨٣٠ — ١٩٣٠) فى المجلة الافريقية ، ٣٥٦ — ٣٥٧ (سنة ١٩٣٣) ، ص ١ — ٩٨.

تستدعى سوى بعض المعارف فى شئون الفقة ، وبعض المبادىء فى النحو والصرف والعروض . اما الشىء الضرورى والمؤهل حقا فهو الولاء المطلق للسلطة الجديدة ، وقلة الاتباع ، وعدم الاتصال بالخارج ، وعلى هذا الاساس ارتبط مصير هذه الطائفة بالوجود الفرنسى ، وخصوصا برجال المكاتب العربية الذين كانوا يغدقون الالقاب والاوسمة على من شاؤوا وينزعونها عمن شاؤوا . وهكذا وجد كتاب وشعراء مخضرمون منهم محمد الشاذلى القسنطينى ، ومحمد الصالح العنترى ، وعلى بن الحفاف ، وحميدة العمالى واحمد بوقندورة ، وعلى بن موسى ، والطيب ابن المختار (١) .

ولا نستغرب ان لا يصعد احد من هؤلاء الى مكانة بارزة فى الادب والشعر ، او النظريات السياسية والاصلاح الاجتماعى ، بل اننا لا نكاد نعثر من بين آثارهم على كتاب له قيمة علمية هامة . وقد انحصر انتاج الشاذلى القسنطينى ، الذى تولى القضاء فى قسنطينة ، فى اشعار متفرقة متوسطة المستوى خصص معظمها لمدح رجال السلطة الفرنسية ، اما نثره فلم يجمع ، وهو يتمثل فى مجموعة من الرسائل التى تبادلها مع رجال الادارة الفرنسية ولا سيما مع الضابط بواسونى . وكان ابن موسى شاعرا مجيدا ، حسب شهادة بيرم الخامس الذى التقى به (٢) ، لكننا لم نقرأ شعره ولا نشك فى انه من صنف الاشعار الرائجة عندئذ .

وكان ابن الحفاف والعمالى وبوقندورة من رجال الافتاء وكانت وظائفهم الرسمية تفرض عليهم سلوكا معينا فى المجتمع وسمتا خاصا فى المعاملة مع رجال الادارة الفرنسية وفنا محددا من القول . وكان ابن الحفاف متذمرا من العيش فى الجزائر ، وكان يفكر فى الهجرة الى الشرق الاسلامى (٣) .

اما العنترى فقد قام بتشجيع من الضابط بواسونى بكتابة تاريخ

---

(١) ليس هناك دراسات وافية عن هؤلاء ، ففى مقال المرحوم سعد الدين بن شنب عن (النهضة العربية فى الجزائر..) مجلة كلية الآداب ، العدد الأول ، (١٩٦٤) ، ص ٣٣ – ٦٦ ، أخبار عن بعضهم ، وفى دراستى عن محمد الشاذلى القسنطينى المذكورة أخبار أخرى مفصلة عن بعضهم أيضاً .

(٢) (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) ، مصر ١٣٠٣ هـ ، ج ٤ . الفصل الرابع وفيه أيضاً أخبار عن على بن الحفاف وأحمد بوقندورة ، وغيرهما .

(٣) نفس المصدر . وقد نصحه بيرم الخامس بالبقاء فى الجزائر لأن أمثاله قليلون ولأن العامة بعده ستبقى بدون دليل .

بايات قسنطينة (١) . وقد كتبه باسلوب ضعيف يبرهن على ما وصلت اليه العربية فى منتصف القرن الماضى . كما كتب بتشجيع من بواسونى ايضا رسالة عن القحط الذى اصاب الشرق الجزائرى فى اواخر العهد العثمانى واوائل العهد الفرنسى ، وهى رسالة تهم الاقتصاديين ، وليس فيها نظريات ولكن تسجيل للاحداث (٢) . واصدر العنترى ايضا تقويما بعنوان « هدية لاخوان ... » جمع فيه اشتاتا من مخترعات الحضارة الحديثة ، هادفا من ورائه الى خدمة فكرة سياسية ، وهى التقريب بين الجزائريين والفرنسيين (٣) . ولا غرابة فى ذلك ، فالتقويم كان من وحى بواسونى ايضا وقد حلى ابن العنترى هذا التقويم بعدة قصائد لزميله الشيخ الشاذلى القسنطينى الذى كان مثله موظفا رسميا . ومادمنا نتحدث عن قسنطينة فى هذه الفترة فلنذكر ان ابن العطار ، وهو احد المثقفين المخضرمين ، قد كتب هو الآخر رسالة عن (تاريخ حاضرة قسنطينة) وكان زميليه موظفا رسميا ايضا (٤) .

واذا انتقلنا الى الغرب الجزائرى فاننا لا نكاد نظفر بكاتب او شاعر او حتى مسجل للاحداث ترك عملا قيما يذكر فى هذا الميدان . فالطيب بن المختار (٥) كان شاعرا ، ولكنه عاد من هجرته فى الشرق وتقلد وظيفة رسمية وقد كتب السيد محمد بن على التلمسانى (١٨٦٤) بوحى من حاكم وهران عندئذ ، مجموعة من التراجم الوهرانية والتلمسانية سماها « اتمام الوطر فى التعريف بمن اشتهر .. » . ذكر فيها بالخصوص الشيخ الرجاى ، وابن هطال ، الخ (٦) كما كتب احدهم تاريخا لوهران على عهد الاسبان والعثمانيين (٧) ، وهو عبارة عن تلخيص لكتاب « الثغر الجمانى » (٨) لابن سحنون . ويجب ان نذكر هنا ان الجهة الغربية قد عانت كثيرا من هجرة

---

(١) قسنطينة ، ١٨٤٦ بطبعة حجرية .

(٢) توجد منها نسخة خطية فى المكتبة الوطنية بالجزائر . وقد انتهى منها سنة ١٨٧٧ .

(٣) قسنطينة ، ١٨٤٧ .

(٤) نشرها نور الدين عبدالقادر ، الجزائر ، ١٩٥٢ .

(٥) محمد بن عبد القادر (تحفة الزائر) ط الاسكندرية ١٩٠٣ ، ج ٢ ص ١٤٧ وانظر عنه كذلك طه الحاجرى (جوانب من الحياة العقلية والأدبية فى الجزائر) ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٨ ص ٧٣ .

(٦) مخطوط بالمكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٥٧٥٣ .

(٧) مخطوط بالمكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٥٠٢٢ .

(٨) نشره وكتب له مقدمة الشيخ المهدى البوعبد لى ، الجزائر ، ١٩٧٣ . وهوفى سيرة الباى محمد الكبير فاتح وهران للمرة الثانية ، سنة ١٧٩٢ .

المثقفين سواء الى الشرق او الى المغرب الاقصى . ومن الذين هاجروا الى البلد الاخير أبو حامد المشرفي الذي عاد الى الجزائر اكثر من مرة وله (رحلة) عن زيارته لها . والمشرفي من الكتاب المكثرين ، وله كتب في مختلف المعارف كالتاريخ والدين والتراجم والادب والمشاهدات . وليس هنا مكان تفصيل القول في كتبه وشخصيته ، ولكن ما تجدر ملاحظته هو ان المشرفي قد اهتم في عدد من كتبه بقضايا الجزائر ، ولا سيما في (طرس الاخبار) ، (والياقوته) (وذخيرة الاواخر والاول) (١) الخ . وفي الكتاب الاخير فوائد جمة عن مشاهداته في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن الماضي . وهو وان كان متفائلا بحالة العلوم في وطنه القديم لانه قد وجد المساجد عامرة كما كانت في الماضي ، الا انه انتقد بشدة حالة الجزائريين تحت الفرنسيين . ولكن المشرفي كان ساخطا على الحالة الاجتماعية والسياسية في المغرب فكان منشغلا بمدح النظم الغربية الموجودة في الجزائر لينتقد من وراء ذلك الحالة في المغرب ، ولم يكن ، خلافا لاعتقاد هنري بيريس ، يمدح اعمال فرنسا في الجزائر هكذا (٢) .

ومما سبق نتبين ان وسيلة هذه المدرسة كانت التعبير بالشعر وبالنثر ولكن بضعف شديد . وان اغراضها كانت محدودة ومقصورة على التكسب بالمدح والمجاملة ، او على الرثاء والمدائح النبوية . وقلما طرق اصحابها ابواب النقد الاجتماعي والحياة السياسية عامة . ونعتبر هذه المدرسة القنطرة التي اجتازت عليها الثقافة الفرنسية الى معاقل الثقافة الوطنية وهاجمتها في عقر دارها . ذلك أن الثقافة الوطنية قد فقدت اثناء فترة هذه المدرسة معظم المدافعين عنها ، ولم يبق في الميدان سوى من لا قبل له على الدفاع . ومن اجل ذلك شاع الادب الشعبي ، وقل الانتاج الفصيح ، وظهر بعض المادحين لاعمال فرنسا في الجزائر كما فعل احمد بن الفكون (٣) وابن صيام (٤) وابن القاضي (٥) . والملاحظ ان الجزائر قد خلت خلال

---

(١) كلها مازالت مخطوطة . وقد ذكر أن الشيخ محمد بن أبي شنب قد حقق الأول منها، فإذا فعل ذلك فإنه لم ينشره . أنظر عادل نويهض (معجم أعلام الجزائر) ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ترجمة ابن أبي شنب.

(٢) هنري بيريس « الجزائر في نظر رحالتين مسلمين » ، (اتحادية علماء شمال أفريقية)، الجزائر ١٩٣٥ ، ص ٢٥٩ — ٢٧٠ .

(٣) كتب (التاريخ المتدارك في أخبار جاندارك) ، الجزائر ، ١٨٦٧ .

(٤) (رحلة إلى فرنسا) ، الجزائر ، ١٨٥٢ .

(٥) (الرحلة القاضية في مدح فرنسا وتبشير البادية) ، الجزائر ، ١٨٧٨ .

هذه الفترة من الصحافة العربية ، والذى يقرأ الجريدة الوحيدة عندئذ ، وهى (المبشر) (١) يدرك قيمة الانتاج ومستواه ، فقد كانت عبارة عن ورقة لنشر الاعلانات والاوامر والمراسيم والتعيينات الرسمية فى اسلوب ركيك وعبارات مترجمة لا روح فيها ولا ذوق . كما ان الجزائر خلت من النوادى الثقافية ، ولم يكن العلماء يلتقون الا فى زيارات المجاملة ، أو اثناء درس فى الجامع الكبير ، أو عند نقيب ضريح الثعالبى ، وما الى ذلك .

والخلاصة ان المدرسة المخضرمة كانت انعكاسا ثقافيا للجزائر السياسية . فبقدر ما اشتدت قبضة الاستعمار على مقاليد البلاد فى جميع المجالات ، بقدر ما هبط المستوى الثقافى الى الحضيض . ولكن هذه الحالة قد بدأت تتغير فى نهاية القرن الماضى ، وكان لذلك اسباب لابد من ذكرها . وقد ادى هذا التغيير فى الحياة الاجتماعية والسياسية الى ميلاد مدرسة جديدة نسميها مدرسة الموظفين المستنيرين .

٣ ـ المدرسة المستنيرة (١٨٨٠ ـ ١٩١٤)

رغم الهبوط المخيف الذى هبطته الثقافة العربية فى الجزائر خلال مرحلة المدرسة الثانية او المخضرمة ، فان عهدا جديدا قد حل ابتداء من أوائل الثمانينات ، وهو العهد الذى شهدت فيه هذه الثقافة انطلاقة خصبة على يد جماعة من المثقفين الموظفين المستنيرين . وهناك عوامل كثيرة ادت الى هذه الانطلاقة الجديدة سنورد أهمها :

دخلت الجزائر منذ ١٨٧١ فى عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة التى عرفت بتمسكها وتشددها فى الاستعمار . ومن اجل ذلك غيرت نظام الحكم العسكرى الى حكم مدنى ، ومنحت المستوطنين الاوربيين كل حقوق المواطن الفرنسى فى فرنسا . ومن جهة اخرى ادى فشل ثورة ١٨٧١ الى زيادة استغلال الاهالى وعقابهم بالمصادرة والتغريم والابعاد . وعرفت الجزائر على يد بعض الحكام العامين امثال لويس تيرمان (١٨٨١ ـ ١٨٩١) وجول كامبون (١٨٩١ ـ ١٨٩٧) ، وشارل جونار (١٩٠٣ ـ ١٩١١) ، عهدا من الاستقرار الثقيل ولكنه استقرار جعل سياسة فرنسا نحو الاهالى تزداد وضوحا خلافا لما حدث فى عهد نابليون الذى تميز بالغموض والاضطراب حول موضوع الاهالى .

---

(١) أنشأها الفرنسيون سنة ١٨٤٧ .

ولكن هذا لا يعنى أن الجزائر لم تعرف بعض الهزات الاجتماعية خلال هذه الفترة . فبعد انتصار المستوطنين الاوروبيين فى جعل الحكم مدنيا ، حصل يهود الجزائر على حق المواطنة الفرنسية . وقد خلق هذا حساسيات بينهم وبين المستوطنين ادت الى احداث التسعينات المعروفة (بأحداث مشادة السامية) . ومن المعروف ان هذه الاحداث قد برزت الى الشوارع وانقسمت حولها الصحافة والراى العام ، واثرت على الانتخابات البلدية والحياة الاقتصادية . ولم يكد المستوطنون ينتهون من معركتهم مع اليهود حتى ظهرت فى الافق بوادر معركة اخرى مع الجزائريين حول قضية التجنيد الاجبارى . وكان من راى المستوطنين ان التجنيد الاجبارى سيؤدى حتما الى مساواة الجزائريين معهم فى الحقوق والواجبات ، بينما لو وقع هذا لغرقت الاقلية (المستوطنون) فى بحر الاغلبية (الجزائريون) . وعندما وقعت الحرب العالمية الاولى فرض على الجزائريين قرار التجنيد الاجبارى لكن بدون مساواة مع المستوطنين .

وكان الجزائريون يستفيدون من كل هذه الاحداث . وقد تولت منهم نخبة جديدة ، ظهرت مع أواخر القرن الماضى ، تمثيل الراى العام الوطنى والتعبير عنه لدى السلطات الفرنسية سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة . وقد أتيحت بعض الفرص لاثارة قضايا الجزائريين أمام الفرنسيين . من ذلك قدوم لجنة التحقيق التى كان يراسها جول فيرى، والتى عرفت (بلجنة مجلس الشيوخ) سنة ١٨٩٢ (١) . وذلك ان عددا من الجزائريين ، يمثلون النخبة التقليدية والجديدة ، قد مثلوا أمام هذه اللجنة وعبروا عن رغبات مواطنيهم فى الحفاظ على التقاليد الوطنية ، وتعليم اللغة العربية ، واحترام الشريعة الاسلامية ، وتخفيف الضرائب والغاء قوانين (الاندجينا) الجائرة (٢) .

فكانت هذه اللجنة تشكل اول اهتمام من جانب الجمهورية الثالثة بموضوع الجزائريين . ولم يحن فاتح القرن الحالى حتى عين على راس

---

(١) درسها شارل روبير أجورون فى كتابه (الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١ – ١٩١٩) ، جزءان ، باريس ١٩٦٨ ، انظر الجزء الأول ، ص ٤٤٧– ٤٥٣.

(٢) أنظر مثلا جواب القائد يحيى شريف أحمد بن سليمان ، وهو نائب عام ولاية قسنطينة عندئذ . وجوابه مطبوع بمدينة سطيف ، مطبعة روكه ، سنة ١٨٩١ . ومن الذين أجاب اللجنة محمدين رحال وابن بريهات وبوضربة وبجميدة بن باريس عم الشيخ عبد الحميد بن باديس .

الولاية العامة السيد جونار (١) الذى عمل على ابقاء الشخصية العربية الاسلامية للجزائر فى ظل فرنسا طبعا . ومن اجل ذلك شجع احياء فن العمارة الاسلامى . وبعث التراث المكتوب ، والتقرب من طبقة المثقفين التقليديين وتشجيعهم على القيام بمهمتهم القديمة كاقامة الدروس فى المساجد ونحوها ، كما عمل على تجديد برامج التعليم فى المدارس العربية الفرنسية . وقد كان لسياسته ابعد الأثر على الحياة الثقافية فى الجزائر كما سنرى .

والنخبة التى اشرنا اليها تعود فى ظهورها الى سياسة فرنسا التعليمية فى الجزائر . فمنذ البداية عمل ارباب السياسة والتربية الفرنسيون على جعل الجزائر فرنسية ـ جزائرية . وهذا يعنى عزلها التام عن تطور الثقافة العربية الاسلامية فى اقطار المشرق من جهة . ومنحها مقادير محددة من الثقافة الغربية من جهة اخرى . وقد راينا ان سياسة العزل قد نجحت خلال المدرسة الثانية (المخضرمة) ، حيث بدات الثقافة الوطنية « تتجزأ » وتتجمد وتاخذ مجرى ضيقا الى غاية مجهولة . والى جانب هذا المجرى الضيق من الثقافة الوطنية الذى كان يمثله مثقفون تقليديون موظفون ، كان هناك مجرى آخر اضيق منه ينبع من الثقافة الفرنسية ويسير ايضا الى غاية مجهولة . وكان يمثل هذا المجرى عدد ضئيل من ابناء العلائات التى اتصلت بالفرنسيين وربطت مصيرها بمصيرهم . وكان اولئك يسمون بالنخبة التقليدية ذات الثقافة العربية ، وهؤلاء يسمون النخبة الجديدة ذات الثقافة الفرنسية . ولكن موضوعنا الآن هو النخبة الاولى . ذلك ان فرنسا ، تمشيا مع سياستها الاسلامية العامة، قد ادخلت تعديلات على برامج المدارس العربية فى الجزائر ، اهمها تعديلات ١٨٧٧ ، ١٨٩٥ ، وتعديلات جونار اوائل القرن الحالى (٢) . وقد برزت من هذه المدارس عناصر قليلة ، لكن فعالة سنتذكر اهمها واعمالها بعد قليل .

ومن المؤثرات البارزة فى تطور هذه المدرسة احداث العالم الاسلامى . فبالاضافة الى سياسة عبد الحميد الثانى الاسلامية التى كانت تصل الى

---

(١) تولى شئون الجزائر ثلاث مرات أولها من ١٩٠٠ إلى ١٩٠١ ، لكن أطول مدة وأكثرها تأثيرا هى الثانية التى أشرنا اليها فى النص وكان جونار من أعضاء لجنة مجلس الشيوخ المذكورة ، وكان من أنصار فكرة الجزائر المستعمرة لا المندمجة فى فرنسا ، أى التى تحتفظ ببعض خصائصها .

(٢) قام بالتنظيم الأول الحاكم العام شانزى سنة ١٨٧٧ (انظر جريدة المبشر ، ١٢ مايو ١٨٧٧ ، وكذلك عدد ١١ أغسطس من نفس العام) . وقام بالتنظيم الثانى السيد كامبون سنة ١٨٩٥

الجزائريين عن طريق الحجاج ونحوهم ، ظهرت حركة الجامعة الاسلامية بقيادة جمال الدين الافغاني ورفيقه محمد عبده . ونظرا لسياسة انكلترا نحو محمد عبده فان فرنسا حاولت اجتذابه اليها فعرضت عليه زيارة الجزائر وتونس . وقد لبى هو هذا العرض (١) فكان لزيارته تأثير على الحياة الثقافية في بداية هذا القرن ، ولعل الزيارة في حد ذاتها ليست بذات اهمية ، لكن ابعادها كانت مهمة . ذلك ان فرنسا ، في عهد جونار ، قد سمحت لمجلة (المنار) لسان الحركة العبدوية بالدخول الى الجزائر ، فكانت هذه المجلة عبارة عن مدرسة اصلاحية متنقلة . كما سمحت السلطات الفرنسية ، على عهد جونار ايضا ، باعلان بعض المثقفين الجزائريين ، الذين كانوا يديرون الصحافة ، انهم من اتباع محمد عبده ، وانهم يعبرون عن وجهة نظره الاصلاحية .

ويضاف الى هذه النشاطات الاسلامية احداث بارزة كان لها تأثير على حياة الجزائريين عامة والمثقفين خاصة ، وهي احتلال فرنسا لتونس سنة ١٨٨١ ، واحتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ ، والحركة المهدوية في السودان واحتلال المغرب سنة ١٩١٢ ، والحرب الطرابلسية الايطالية سنة ١٩١١ – ١٩١٢ ، ووقوع الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ فالعالم الاسلامي اذن كان يعيش احداثا جساما ، وكانت الجزائر التي سبقت غيرها في المعاناة من هذا الاحتلال والتدخل الاجنبي تتابع بوعي تلك الاحداث وتعيشها . وقد ظهر ذلك في شكل نهضة ثقافية ذات طابع اسلامي تمثلت في الصحافة الوطنية وفي مجموعة من النوادي والجمعيات ، وفي حركة تاليف وترجمة ونشر التراث القديم (٢) .

وكان على راس هذه المدرسة عدد من المثقفين الجزائريين الذين جمعوا الى الثقافة العربية ثقافة المحتل وطريقة تفكيره ونظمه الاجتماعية والسياسية . ولكن هؤلاء المثقفين لم يكونوا على حظ واحد من هاتين الثقافتين ، كما انهم لم يكونوا على حظ واحد من الانتاج . ففي سنة ١٨٨٦ ظهر في الجزائر كتاب (٣) باللغتين الفه اسباني هو غونثاليس ،

---

(١) زار محمد عبده الجزائر سنة ١٩٠٣ . وقد درس هذه الزيارة السيد علي مراد في مقالة له بعنوان (تعاليم محمد عبده السياسية للجزائريين) التي نشرها في مجلة الوريان (التي تصدر بفرنسا ، عدد ٢٨ سنة ١٩٦٣ ، ص ٧٥ – ١٢٣ . وفي المقالة مبالغة لدور الشيخ عبده في الجزائر ، لا نظن أن الوقائع والأحداث تؤيده .

(٢) تعرضت في كتابي (الحركة الوطنية الجزائرية) لهذه الفترة ، انظر بالخصوص الفصل الثاني والثالث .

(٣) عنوانه (مشاهير مسلمي مدينة الجزائر) الجزائر ١٨٨٦ .

ترجم فيه باختصار شديد لجماعة من مفاتي مدينة الجزائر وقضاتها الحنفية والمالكية وعلمائها وصلحائها خلال العهدين العثماني والفرنسي . كما ترجم باختصار ايضا لباشوات ودايات الجزائر . والملاحظ ان مفتي الحنفية عندئذ الشيخ احمد بو قندورة ، الذي كان يتقن الفرنسية ايضا . هو الذي قرظ الكتاب بالعربية ، كما قرظه زوس المستعرب الفرنسي بالفرنسية . ويبدو ان هذا الكتاب كان دافعا لعدد من مثقفي هذه المدرسة الى الاهتمام بماضي الجزائر وتراثها امثال ابي القاسم الحفناوي (١) . والملاحظ كذلك ان غونثاليس قد اشار في مصادره الى مؤلفين جزائريين مغمورين امثال عبد الرازق بن حمادوش ، وعبد الرحمن التلمساني صاحب « الزهور النيرة » . ولعلّ ابن ابي شنب قد تأثر أيضا بكتاب غونثاليس ، لأنه (ابن ابي شنب) قد كرس نشاطه منذ اوائل هذا القرن لبعث التراث الجزائري والعربي عامة .

ومنذ ١٨٧٧ اصدر الشيخ عبد القادر المجاوي ، وهو من زعماء مدرسة الموظفين المستنيرين رسالة (٢) كثيرة الفائدة في وقته ، دعا فيها الى الاصلاح الاجتماعي بنقده للتقليد ، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة الى نبذ الركود والى اليقظة والاخذ باسباب الحضارة الحديثة . وقد كان كتابه موضع تعليق وتحبيذ حتى من بين الدوائر الرسمية في الجزائر . فقد نشرت جريدة (المبشر) بالعربية تعليقا حول هذا الكتاب حللت افكار مؤلفه وانتهت فيه الى راى ايجابي وكان عنوان التعليق « كتاب مفيد » (٣) . والمجاوي قد اصدر كتبا اخرى في موضوعات شتى عالج فيها بعض الجوانب الاجتماعية والاصلاح الديني . وكان كثير الاطلاع مثقفا باللغتين . تصدر للتدريس في مدرستي قسنطينة والثعالبية بالجزائر ، وكلتاهما رسمية ، وتخرج على يديه جيل من المثقفين ، حتى

(١) في كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) جزءان : الجزائر ١٩٠٦ - ١٩٠٧ . والكتاب من وحي جونار الذي شجع صاحبه وسهل مهمته .

(٢) عنوانها (ارشاد المتعلمين) ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٨٧٧ (١٢٩٤ ھ) ، وتقع في ٣٠ صفحة . وقد قرظها بعض علماء مصر والشام منهم وهبي أفندى المصرى معلم اللغة الفرنسية في مدرسة حارة السقائين المصرية . ومما جاء في تقريظه أن مؤلف الرسالة « قد سلك فيها مسلكا لم يسبق اليه ، ولا حام فكر أحد من المتقدمين عليه » وقرظها أيضاً السيد حامد سليق الشامى نزيل مصر .

(٣) المبشر ، عدد ٨ ديسمبر ١٨٧٧ .

سماه بعضهم « بأبي النهضة » ، وسماه آخرون « بشيخ الجماعة » . فقد كان ، بالاضافة الى ذلك ، كثير النشاط فى النوادى والجمعيات المعاصرة والتى نشطت فى أوائل هذا القرن ، ولا سيما فى العاصمة ، وكانت جريدة (كوكب افريقية) للشيخ محمود كحول تنقل محاضراته وكتاباته الى قرائها ، وكذلك جريدة (المغرب) . فهو فى الواقع قد بدأ الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى والدينى قبل تأثير المدرسة العبدوية فى الجزائر ، وقد تصدى له الخائفون من الفرنسيين والمحافظون من الجزائريين فحاربوه ، ولكنه ثبت على موقفه ، حتى انتشرت دعوته التى تبناها فى قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد بن باديس (١) .

ويبدو أن تأثير المجاوى لم يقتصر على تلاميذه بل تجاوزهم الى اصهاره ايضا . ففى مدار هذا القرن نشر ابو بكر الحسنى ، الذى كان قاضيا ، وصهرا للمجاوى ، كتابا متوسط الحجم (٢) لخص فيه تاريخ الجزائر العثمانية والفرنسية ، ثم اشاد فيه بما شيدته فرنسا فى الجزائر من اعمال حضارية كالمدارس والمعارض والمنتزهات والمبانى الخ . ولكن المهم فيه هو انه دعا مواطنيه الجزائريين أن يتعلموا اللغة الفرنسية وان يستفيدوا من هذه الحضارة التى حولهم ، وان يفيقوا من نومهم وينبذوا ، حسب رأيه ، التعصب والعزلة . والذى يلفت النظر حقا هو ان الذى قرظ الكتاب هو الشيخ المجاوى نفسه . كما قرظه الشيخ محمود كحول الذى كان عندئذ مدرسا فى قسنطينة (٣) . كذلك قرظ الكتاب عدد من القضاة الذين امتدحوا صاحبه شعرا ونثرا .

وطلع القرن العشرون بتولى جونار ولاية الجزائر . وقد ذكرنا انه جاء « بسياسة اهلية » واضحة كان يهدف من ورائها الى جلب طبقة المثقفين الى فرنسا من جهة وجعلهم اداة لبث رسالة فرنسا الحضارية وسط الاهالى من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس أوعز الى ابى القاسم الحفناوى بتأليف كتابه « تعريف الخلف برجال السلف » الذى سبق

---

(١) توفى الشيخ المجاوى سنة ١٩١٤ بمدينة الجزائر ، وتوجد صورة فى (التقويم الجزائرى) الذى كان يصدره الشيخ محمود كحول ، سنة ١٩١١ أو ١٩١٢

(٢) سماه (روضة الأخبار ونزهة الأفكار) . الجزائر ١٩٠١ .

(٣) هو منشىء جريدة (كوكب افريقية) العربية التى كانت واسعة الانتشار ، ومحرر (التقويم الجزائرى) الذى صدر منه ثلاث سنوات من ١٩١١ — ١٩١٣ . وقد تولى بعد ذلك الافتاء المالكى . واغتيل سنة ١٩٣٦ ضحية مؤامرة كانت تهدف إلى النيل من قادة المؤتمر الإسلامى الجزائرى الذى انعقد فى نفس العام .

ذكره ، كما اوعز الى ابى شنب بنشر عدد من كتب التراث . فقام هذا بنشر رحلة الورثلانى ، المسماة « نزهة الانظار » ، ونبذة من رحلة ابن عمار المعروفة « بنحلة اللبيب » و « البستان » لابن مريم و « عنوان الدراية » للغبرينى ، وغيرها .

كذلك امر جونار بنشر اعمال جزائرية واسلامية قديمة وقررها على المدارس التابعة لفرنسا . فقام الجنرال فوربيقى بترجمة عقيقة المنداسى ، والحلل السندسية لابى راس الناصرى ، وفانيان بترجمة مختصر الشيخ خليل ، ولوسيانى بترجمة صغرى الشيخ السنوسى . وموبتلانسكى بترجمة ارجوزة متن منازل القمر لمحمد المقرى ، وسيكار بترجمة منظومة الشيخ حسن العطار . كما قام الخابط المستشرق رين والترجمان العسكرى الجزائرى احمد بن حسن بن بريهمات بوضع كتاب بعنوان (اللسان يكمل الانسان) فى تعليم الفرنسية بالعربية . ويدخل فى هذا الباب امر الوالى لحكام الاقاليم ونوابهم بحمل المسلمين على حضور دروس المساجد التى نظمها واعطاها شيئا من الحيوية بحركة تعيينات فى الوظائف الدينية . ولنذكر من هذه التعيينات تعيين ابن الموهوب مفتيا فى قسنطينة ومدرسا بجامعها الكبير . وتعيين عبد الحليم بن سماية مدرسا بالجامع الجديد بالعاصمة (١) .

وقد اصبحت مطبعة فونتانة تطبع الكتب العربية ، وكان جونار قد خصص لها مساعدة لتغطية عجزها تشجيعا لها على اداء المهمة التى سطرها (٢) . وبالاضافة الى هذه المطبعة كانت المطبعة الثعالبية لرودوسى تقوم ايضا بطبع الكتب العربية ، ولعلها كانت تتلقى ايضا بعض المساعدات من الولاية العامة . لكن يلاحظ على مطبوعاتها الطابع الدينى ، واحيانا الخرافى ، ولم تطبع من الكتب الجادة سوى المصاحف وبعض كتب ابن ابى شنب (وهو صهر لصاحبها) وتفسير عبد الرحمن الثعالبى (٣) .

---

(١) انظر المبشر ، عدد ٢٤ نوفمبر ، ١٩٠٠

(٢) لاحظ أن معظم الكتب المترجمة المذكورة قد نشرتها مطبعة فونتانا ، بالإضافة إلى أن صاحبها وهو بيير فونتانا ، قد أنشأ جريدة (المغرب) بالعربية التى كانت تجمع حولها هيئة تحرير من عناصر مثقفة هم : على بوضربة ، ومحمد بن مصطفى ، وعبد القادر المجاوى ، وعمر بن بريهمات ، ومصطفى الشرشالى . انظر جريدة (المغرب) عدد ١٢ مايو ، ١٩٠٣ .

(٣) أنظر مقالة سعد الدين بن أبى شنب (النهضة العربية بالجزائر) ، ص ٤١ — ٤٢ . ومن الكتب الهامة التى نشرها رودوسى أيضاً (كشف الرموز فى بيان الأعشاب) لعبد الرزاق بن حمادوش ، الذى طبع ثلاث طبعات .

وعلى كل حال فان سياسة جونار الثقافية قد ادت الى حركة نشيطة فى ميدان الصحافة العربية ، والتأليف ، وبعث التراث ، والتعليم فى المدارس العربية الفرنسية ، ودروس المساجد على يد نخبة من شيوخ تلك الفترة .

والواقع ان هذه المدرسة قد تميزت بميزات اختلفت بها عن غيرها. واولها هذا الطابع الجزائرى المحلى الذى عرفت به . فجماعتها كانوا غالبا من خريجى المدارس الفرنسية ومن نتاج العلاقات الثقافية الجزائرية الفرنسية . لذلك كان انتاجها الثقافى يمتاز بشىء من الجفاف والمحلية وغلبة روح الترجمة عليه .

وثانيها التأثر بالفرنسية فى التعبير والبحث . ذلك ان عددا من اقطابها كانوا ينتمون الى « مدرسة الميسر » حيث كانوا يعملون مترجمين امثال محمد بن مصطفى خوجة (المضربة) ، وابى القاسم الحفناوى ، ومصطفى الشرشالى ، او كانوا باحثين امثال ابن ابى شنب ، او كانوا من رجال الدين المزدوجى اللغة امثال ابن الموهوب وابن سماية وابن زكرى .

وثالثها ان اصحابها ، بالرغم من ان بعضهم قد تأثر بافكار الجامعة الاسلامية ، لم يتلقوا تعليمهم فى خارج الجزائر ، كما فعل اصحاب المدرسة الرابعة ، وحتى هذا التأثر كان بطريقة غير مباشرة ، اى انه لم يكن عن طريق التلقى والتتلمذ وانما عن طريق القراءة والسماع .

ورابعها ان الاعمال التى ركز عليها اصحابها لا تخرج عن ميدانين : ميدان التراث ، وقد انتج فيه بالخصوص ابن ابى شنب ، والحفناوى ، والمجاوى . وميدان القضايا الاجتماعية الراهنة ، وقد انتج فيه بالخصوص مصطفى خوجة وابن زكرى وابن سماية وابن الموهوب . بالاضافة الى ميدان ثالث هو الصحافة العربية التى ساهم فيها الشيخ محمود كحول وعمر بن قدور وعمر راسم مساهمة واضحة .

وخامسها ان الاتجاه العام الذى سار عليه زعماء هذه المدرسة هو اتجاه الولاء لفرنسا ، فى الظاهر على الاقل ، فهم لم يدعوا الى حركة معارضة او يتزعموا حزبا سياسيا انفصاليا ، وانما لجأوا الى الدعوة الى العلم والمعرفة واليقظة وتقليد الاروبيين وعلاج الأمراض الاجتماعية ، كل ذلك فى نطاق النظام القائم . غير ان بعضهم قد ركزوا على الخصائص المميزة للشعب الجزائرى من الوجهة الحضارية ، بالرغم من ان الظروف

قد جعلته يعيش تحت الحكم الفرنسى ، ومن الذين ابرزوا هذه الخصائص ابن الموهوب والمجاوى وابن سماية ومصطفى خوجة وابن رحال .

وسادسها ان وسائل التعبير التى التجأ اليها أصحاب هذه المدرسة تمثلت فى الشعر والنثر معا ، لكن غلب عليها الاخير . ومن الذين عبروا بالشعر احيانا المجاوى ، وابن الموهوب ، وكحول . لكن لم يكن من بين زعماء هذه المدرسة شاعر مجيد فاق اقرانه وتميز بصوته . أما النثر فقد تقدم على يد هؤلاء تقدما ملحوظا ، ورغم ان ابن ابى شنب ظل يحافظ على الطابع القديم ، ولا سيما الجملة المسجوعة والمفردات الغريبة أحيانا ، والتعابير المحفوظة ، فان مصطفى خوجة والحفناوى مثلا قد اطلقا الجملة من عقالها . ونلاحظ انه قد شاع على ايديهم ايضا ما يمكن ان نسميه (بالنثر الصحفى) ذلك ان الصحافة العربية التى ازدهرت كما لاحظنا خلال هذه الاثناء قد فتحت المجال امام بعض هؤلاء . كذلك فتح أمامهم باب الكلمة المسموعة ان صح التعبير . فالنوادى والجمعيات التى كثرت عندئذ استقطبت من بينهم عددا اصبحوا خطباءها ومحاضريها . وكانت الصحافة تنقل هذه الخطب والمحاضرات ، كما كانت احيانا تترجم الى اللغة الفرنسية ، مثل محاضرات ابن الموهوب .

المدرسة الاصلاحية : ١٩٢٠ ـ ١٩٥٤ م

كثير من الناس يربطون الاصلاح فى الجزائر بجمعية العلماء (١) . والواقع ان مفهوم الاصلاح أوسع من مفهوم جمعية العلماء ، كما انه اقدم منها ، كما عرفنا ، فهو أوسع من مفهومها لأن عددا من المثقفين (من اصحاب الثقافة العربية الفرنسية) كانوا مصلحين ولكنهم لم يكونوا اعضاء فى جمعية العلماء وكانوا يخالفونها فى بعض مبادئها وغاياتها . وقد تعرض لهذا بعد قليل . ومن جهة اخرى يعتبر الاصلاح اقدم من جمعية العلماء لاننا عرفنا ان كثيرا من عناصر المدرسة المستنيرة كانوا مصلحين

---

(١) كثير من النقط التى يعالجها موضوع (المدرسة الإصلاحية) قد تناولناها فى كتابنا (الحركة الوطنية الجزائرية) الجزء الثانى ١٩٠٠ ـ ١٩٣٠ ، والجزء الثالث ١٩٣٠ ـ ١٩٥٤ ، فمن أراد التوسع فى الفترة التى نعالجها هنا فعليه بالعودة إلى هذين الكتابين وما فيهما من مراجع ، ونحب أن نحيل القارىء أيضاً إلى كتاب مراد (الإصلاح الإسلامى فى الجزائر) ـ بالفرنسية ـ وكذلك كتاب تركى رابح (التعليم القومى والشخصية الجزائرية) .

ايضا ، وكانوا متأثرين بالحضارة الفرنسية من جهة وبتيار الجامعة الاسلامية من جهة اخرى . ولعل السبب فى الخلط بين الاصلاح وجمعية العلماء كون هذه قد شخصت الحركة الاصلاحية فى الجزائر واعطتها دفعة جديدة ومدرسة جديدة لم يكن الاصلاح القديم قد قام بها . بالاضافة الى ان جمعية العلماء قد ولدت نتيجة الحركة الاصلاحية وليس العكس.

لكن من الواضح ان المدرسة الاصلاحية التى نعنيها هنا قد ولدت بعد الحرب العالمية الاولى ، نتيجة لعدة عوامل ، اهمها :

١ ــ التحول الذى حدث على مستوى الجزائر .
٢ ــ عودة العقبى والابراهيمى من المشرق .

ففى فبراير سنة ١٩١٩ صدرت « الاصلاحات » الفرنسية التى تمنح الجزائريين حق المشاركة فى الانتخابات البلدية وتوسع لهم من القاعدة الانتخابية بصفة عامة . وعلى أساس هذه الاصلاحات برز على المسرح الامير خالد الذى أصبح تدريجيا رمزا لحركة وطنية اسلامية اصلاحية (على المستوى السياسى) ، واصدر الامير جريدة (الاقدام) باللغتين . فكانت تنشر لجيل جديد من الكتاب والشعراء وذوى الطموح الاصلاحى . ومن هؤلاء محمد العيد وابو القاسم خمار والعقبى وابن باديس . ودارت معركة « ايديولوجية » اذا صح التعبير بين الامير خالد وخصومة من انصار الاندماج والذين كان يتزعمهم عندئذ الدكتور ابو القاسم ابن التهامى ، صاحب جريدة (التقدم) . وهكذا ظهر فى الجزائر تيار جديد اصبح حديث الناس فى الداخل وفى الخارج . وقد شجع هذا الوضع ابن باديس فانطلق فى حركته التعليمية بقسنطينة كما شجع الطيب العقبى فانطلق فى حركته الاصلاحية ببسكرة .

ولكن المعمرين الفرنسيين وخصوم الامير خالد من الجزائريين كادوا لهذه الحركة وحاولوا وقفها ، فزوروا قوائم الانتخابات البلدية ونفوا الامير من الجزائر . فنقل هذا نشاطه الى باريس حيث تعاون مع اليسار الفرنسي والعمال الجزائريين والمغاربة عامة . ومن نشاط الأمير فى باريس ولدت منظمة (نجمة شمال افريقية) الوطنية الثورية التى سرعان ماتادت باستقلال الجزائر وآمنت بالثورة كطريق لتحقيقه . ومن أجل هذا المبدأ الخطير تعرضت للحل والمضايقات والمحاكمات . وقد استمرت عشر سنوات وهى تصارع القضاء الفرنسى للحصول على الشرعية . غير انها فى سنة ١٩٣٧ حولت نفسها الى (حزب الشعب الجزائرى) ونقلت نشاطها من

باريس الى الجزائر نفسها ، رغم انها استمرت على علاقة وطيـــدة مع العمال فى المهجر . ولكن السلطات الفرنسية لم تصبر على نشاط الحزب فحلته ايضا . واستمر الحزب كذلك خلال الحرب العالمية الثانية بل ظل منحلا بعدها ايضا . غير ان زعماءه كونوا منظمة جديدة سنة ١٩٤٦ ،باسم (حركة انتصار الحريات الديموقراطية) كغطاء له بينما ظل الحزب يعمل فى الخفاء لتحقيق الاهداف الوطنية التى من بينها تحقيق الاستقلال عن طريق الثورة . وكان الفضل فى تفجير الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ يرجع الى جناح من هذا الحزب بعد ان انشق على نفسه .

واذا كانت حركة الامير خالد قد آلت الى ما وصفناه فان خصومه من الجزائريين قد نظموا انفسهم ايضا فى هيئة ظلت فترة من الوقت تمثل تيار الوسط اليمينى ، او التيار الاندماجى ، (دمج الجزائر فى فرنسا) . فقد تكونت (اتحادية النواب) وصعدت على منصتها عناصر كان لها دور فى السياسة المحلية الجزائرية مثل الدكتور ابن جلول وفرحات عباس ومحمود شكيكن وعبد القادر السائح وتامزالى .

وكان يعزز كتلة النواب فى اتجاهها طائفة من المثقفين الاندماجيين المساوبين من امثال الفاسى والزناتى وابن الحاج وغيرهم ممن كانوا يسمون انفسهم عن صدق « بالمستضعفين » والذين كانت لهم مجلة بعنوان « صوت المستضعفين » .

وقد تشبث هؤلاء واولئك بما عرف خـــلال الثلاثينات (بمشروع فيوليت) وهو المشروع الذى صاغه الحاكم العام السابق للجزائر ، موريس فيوليت ، والذى فتح الطريق امام النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية للاندماج ، ومن اجل انجاح ذلك المشروع انعقد (المؤتمر الاسلامى الجزائرى) سنة ١٩٣٦ ، وتحالف النواب المذكورون مع الشيوعيين ومع العلماء ايضا . ولكن البرلمان الفرنسى لم يوافق على المشروع ، ومن ثمة فشلت حركة المؤتمر الاسلامى ايضا .

وهكذا جاءت الحرب العالمية الثانية فوجدت النواب والنخبة متصدعين خائبين . فقد انفصل عباس عن ابن جلول وكون (الاتحاد الشعبى الجزائرى) بينما كون ابن جلول (التجمع الفرنسى ــ الاسلامى) . ثم اشترك كل منهما فى الحرب مع فرنسا ضد المانيا وايطاليا . وعندما سقطت فرنسا عاد عباس

ليلعب دورا فى السياسة الاهلية فبعث برسالة الى الماريشال بيتان عن الوضع فى الجزائر . وعندما نزل الحلفاء بالجزائر بعث اليهم ، هو والنواب مذكرة فى نفس الموضوع . ثم قام باتصالات مع اعضاء حزب الشعب والعلماء نتج عنها (البيان الجزائرى) الذى كان حجر زاوية فى العلاقات الجزائرية الفرنسية . ومن هذا البيان انبثقت حركة (احباب البيان والحرية) التى حملها الفرنسيون مسئولية احداث ٨ مايو ١٩٤٥ . ولكن عباس كون سنة ١٩٤٥ (حزب الاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى) الـــذى خاض به الانتخابات المحلية ومثل به اتجاها وسطا يؤمن بالاستقلال الوطنى فى اطار التعاون الفرنسى . وبذلك ابتعد عباس كثيرا عن الاتجاه الوسط اليمينى الذى ظل يمثله ابن جلول وامثاله ، ولكنه لم يقترب كثيرا من حزب الشعب المنادى بالاستقلال الكامل عن طريق الثورة . ولذلك لم يلعب عباس دورا فى تفجير الثورة سنة ١٩٥٤ ، ولكنه انضم اليها بعد عام ونصف من وقوعها .

* * *

وفى الوقت الذى بدا فيه الامير خالد حركته بدا ابن باديس حركته ايضا . ولكن حركة الاخير كانت نشر التعليم بينما حركة الاول كانت نشر الوعى السياسى . والواقع ان ابن باديس قد بـــدا حركته التعليمية قبل الحرب العالمية الاولى ولكنه توقف عن ذلك بعض الوقت خلال الحـــرب واستانفها بعدها ، بعد ان تسلح بثقافة جديدة علمها خلال زيارته للمشرق . وهناك اتصل برفيقه فيما بعد ، الابراهيمى والعقبى ، واتفقوا وهم فى الحجاز على العودة الى الجزائر والقيام بنهضة فيها تتمثل فى نشر التعليم واحيـــاء اللغة العربية وبث الاصلاح الدينى والاجتماعى واعداد الشـــعب لتولى مسئولياته السياسية والقومية . ولما كان ابن باديس اسبقهم فى العودة الى الجزائر واعرفهم بها فانه شرع فى مشروعه انطلاقا من مدينة قسنطينة حيث اسرته العريقة ذات الصلات القوية بالعثمانيين من قبل والفرنسيين من بعد وبالاضافة الى ذلك فان قسنطينة كانت العاصمة التى سبق ان ذاع فيهـــا الاصلاح التقليدى قبل ابن باديس . فقد عاشت تعاليم حمدان الونيسى ، وعبد القادر المجاوى والمولود بن الموهوب قبل ان تعيش حركة ابن باديس . ومن جهة اخرى كانت قسنطينة هى بوابة الجزائر نحو المشرق حرث تنفتح على تونس مهد جامع الزيتونة وصلة الوصل بين المشرق والمغرب منـــذ عقبة بن نافع ومدينة القيروان .

ولم يؤسس ابن باديس فى بدايـــة امره حزبا ولا جمعية . ولـــم يدع انه قائد سياسى او زعيم روحى . لقد بدا بداية متواضعة لم تكد تلفت انظار اعدائه فكان يعلم الاطفال فى المدرسة ويعلم الكبار فى المسجد . وبعد

حوالى اربع سنوات من بداية حركته اسس جريدة ومطبعة . اما الجريدة فقد سماها (المنتقد) واما المطبعة فقد سماها (المطبعة الجزائرية الاسلامية) ولم تحتمل السلطة الفرنسية لهجة الجريدة فاغلقتها بعد حوالى ثمانية عشر عددا . ولكن ابن باديس الذى رسم لنفسه هدفا واضحا سرعان ما اسس جريدة اخرى ـ اصبحت فيما بعد مجلة ـ سماها (الشهاب) كان لها دور عظيم فى الحركة الاصلاحية والادبية والقومية فى الجزائر . وقد رفض قبول وظيفة من الدولة الفرنسية واوصى طلابه بذلك كما كان قد اوصاه هو استاذه (حمدان الونيسى) بذلك . ورغم انتشار طلابه واتساع شهرته فانه لم يؤسس حزبا ولا جمعية كما قلنا ، بل ظل نشاطه حتى سنة ١٩٣٠ يكاد يكون مقتصرا على قسنطينة وما جاورها وعلى التعليم والصحافة

غير ان هناك عوامل جعلت حركته تاخذ بعدا جديدا . اولها رجوع الشيخ الطيب العقبى من الحجاز الى الجزائر ، وعودة الشيخ البشير الابراهيمى من سورية الى الجزائر ايضا . اما الابراهيمى فلا نكاد نجد له نشاطا فى الحركة الاصلاحية والتعليمية خلال العشرينات رغم انه عاد سنة ١٩٢٠ . واما العقبى فقد استقر به النوى فى مدينة بسكرة . وهناك بدا حركة اصلاحية لا عهد للجزائر بها . فقد اتخذ من المسجد منبرا يبث منه افكاره . فهاجم الطرقية والشعوذة والخرافات والمتاجرة بالدين ، ودعا الى السلفية والاسلام الصحيح القائم على العلم والقوة والكرامة . واتخذ مجالس يحدث الناس فيها عن هذه الامور . فانتشرت دعوته واثار من حوله توجس السلطة الفرنسية وسخط اتباعها من رجال الدين فشنوا ضده حملة شعواء . ولم يكن العقبى يداهن او يجامل وانما بدا فى الهجوم ، كما انه لم يتخذ التعليم سلما للوصول الى الهدف كما فعل ابن باديس وانما بدا دعوته الاصلاحية مباشرة . وقد يكون هذا الموقف منه لجهل باوضاع الجزائر التى لا يعرفها او لاعتزاز بالنفس او لايمان بقضية ولكن الذى لاشك فيه هو ان العقبى قد جلب النقمة على نفسه بأسلوبه ولهجته واندفاعه ضد اعداء الاصلاح .

وقد التفت جماعة فى بسكرة حول العقبى آمنت بالاصلاح الذى كان يدعو اليه . نذكر منهم الشاعر محمد العيد ، والشاعر الكاتب باللسانين الامين العمودى ، والشاعر الهادى السنوسى ، واحمد بن العابد العقبى . وقد اصبحت بسكرة فى بداية دعوته مبعث الاصلاح واصبحت تنافس قسنطينة حركة وعلما . فقد اسس اولئك النفر ايضا مطبعة فى بسكرة واصدروا جريدة بعنوان (صدى الصحراء) حملت لواء الفكرة الاصلاحية

التى بثها العقبى . ومن الغريب انها اول جريدة دعت ـ حسب علمنا ـ الى وجوب تأسيس « حزب » للمصلحين . وبعد توقفها اصدر العقبى نفسه جريدة تمثل المبدأ الذى جاء يدعو اليه فأسماها (الاصلاح) وقد استمرت هذه الجريدة مدة طويلة . رغم توقفها او انقطاعها عن الصدور احيانا . وهكذا بينما جعل ابن باديس همه نشر التعليم جعل العقبى همه نشر الاصلاح فكان سلاح الاول خفيا بطىء التاثير وكان سلاح الثانى ظاهرا سريع التاثير (١) .

وثانيهما تأسيس (نادى الترقى) بمدينة الجزائر . والنوادى فى الجزائر ليست جديدة . فقد شهدت السنوات العشر الاولى من القرن الحالى ميلاد عدة نواد وجمعيات مثل (نادى صالح باى) فى قسنطينة و (الجمعية التوفيقية) و (الجمعية الرشيدية) بالعاصمة غير انها جميعا كانت ذات ميول فرنسية ؛ وكان اعضاؤها المؤسسون لها والمشاركون فيها غالبا من الفرنسيين ايضا . اما نادى الترقى فقد اسسه جماعة من المحسنين الجزائريين شعورا منهم بضرورة وجود مقر للنشاط العربى الاسلامى فى الجزائر اثناء حركة الامير خالد وغداة اصلاحات فبراير ١٩١٩ وعشية الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال . واذا كان المحسنون وراء تأسيس نادى الترقى ماديا ؛ فان احمد توفيق المدنى وغيره من المتنورين كانوا وراء تأسيسه ثقافيا . وقد لعب هذا النادى دورا بارزا فى الحياة الثقافية خلال الثلاثينات . فقد كان موئل المثقفين الجزائريين القادمين الى العاصمة ؛ ومزار الرحالة العرب والمسلمين من المشرق ؛ ومركز الخطابة والشعر والمحاضرات والسهرات والندوات بقيادة الطيب العقبى ، ومسقط راس جمعية العلماء سنة ١٩٣١ ومنطلق نشاطها واجتماعاتها فى السنوات التالية، ومقر لجان المؤتمر الاسلامى الجزائرى سنة ١٩٣٦ . ونحو ذلك . وكان نادى الترقى مهد الاصلاح مدة طويلة سواء كان الاصلاح تحت راية جمعية العلماء او تحت راية غيرها ذلك ان هذا النادى لم يكن مرتبطا بالجمعية وانما هى التى ارتبطت به . فقد كان يهرع اليه المصلحون كافة سواء كانوا اعضاء فى الجمعية او ليسوا أعضاء فيها .

* * *

لقد اشتدت الحاجة الى هيئة تجمع قوة الاصلاح فى الجزائر وارتفعت

---

(١) أنظر كتابنا (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى فى العصر الحديث) الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦ م .

اصوات تنادى بتكوين « حزب » اصلاحى يمثل الاتجاه العربى الاسلامى التقدمى بمفهوم ذلك الوقت يكون هدفه نقد المجتمع ، وتطهير الدين ، وفضح اساليب الاستعمار ، وبعث الشخصية الوطنية . وبعد ان كثرت الاتصالات بين وجوه المصلحين النشطين تاسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فى سنة ١٩٣١ بمدينة الجزائر ضامة اليها مختلف العناصر الحية فى اول امرها ، ولكنها سرعان ما اصبحت حكرا على الاتجاه الذى كان يمثله ابن باديس والعقبى والابراهيمى وتلاميذهم . وهكذا انقسم الاصلاح الى فرعين : فرع محلى معتدل يتحرك رجاله داخل القوانين الفرنسية ويقبلون معه الوظائف الرسمية ونحوها من الدولة الفرنسية ، وفرع عربى اسلامى متطرف ثائر على تلك القوانين عامل على انهائها ناظر الى الجزائر على انها قطعة مسلوبة من الوطن العربى ـ الاسلامى رافض قبول الوظائف الرسمية من الدولة الفرنسية .

وتعرض الفرع الاخير الى مضايقات السلطات الفرنسية بالجزائر . فكان رجاله يطاردون ، ووسائله ، من مدارس وصحف ونحوها ، تغلق وتصادر . وكان اعضاؤها يتهمون بشتى التهم ، فهم وهابيون تارة ، وهم شيوعيون تارة ، وهم فاشيستيون تارة اخرى . وكاد هذا الفرع ان تعصف به العواصف خلال الثلاثينات لولا شخصية ابن باديس . فقد كان هو الذى يحفظ التوازن باعتداله وحكمته ومكانته هو ومكانة اسرته ايضا . ونذكر من هذه العواصف محاولة انصار الفرع الاول الاستيلاء على جمعية العلماء سنة ١٩٣٢ وتأسيسهم لما اسموه (بجمعية علماء السنة) ، ومنها اتهام العقبى سنة ١٩٣٦ بالتحريض على اغتيال مفتى المالكية عندئذ ، الشيخ محمود كحول (ابن دالى) ، وهو الاتهام الذى كانت جمعية العلماء هى المقصودة به . ومنها خلاف ابن باديس ـ العقبى سنة ١٩٣٨ حول الموقف من تأييد فرنسا ضد المانيا وايطاليا . فقد راى الاول عدم ارسال برقية تأييد والاعتصام بالصمت وراى الثانى عكس ذلك . فاصبحت الحادثة تعرف (بحادثة البرقية) . وكان من نتيجة هذا الخلاف استقالة العقبى من المجلس الادارى لجمعية العلماء وتأسيسه (لجمعية الاصلاح الاسلامى) . ومن العواصف التى هبت ايضا وفاة ابن باديس سنة ١٩٤٠ ، وقد كان الخليفة الشرعى له هو العقبى . ولكن موقف العقبى السابق بالاضافة الى قبول عضوية لجنة الفتها فرنسا من عناصر فرنسية ومسلمة خلال الحرب العالمية الثانية ، ،جعل العلماء يختارون الابراهيمى بدل العقبى . وقد ادى هذا الموقف الى تكوين فريق ثالث من المصلحين ، وهم انصار العقبى .

ومهما يكن من امر فان الابراهيمى قد تولى قيادة العلماء بعد الحرب العالمية الثانية . وقد اعاد تنظيم الجمعية على نحو يتلاءم مع شخصيته ومبادئه . فاصدر جريدة (البصائر) من جديد فى مدينة الجزائر (صدرت اول مرة سنة ١٩٣٥م وتوقفت بسبب الحرب) ، وتأسس معهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة ، ودعمت سمعته (دار الحديث بتلمسان . وتأسست على يديه عدة مدارس ومساجد حرة كان يمولها ويسهر عليها الشعب بقيادة العلماء . وربط الابراهيمى كذلك بين حركته وحركات المشرق العربى اذ كان يعرف المشرق ورجاله وتياراته اكثر من ابن باديس ،وادخل على الجمعية ما يمكن ان نسميه (بروح المشرق) بينما كانت من قبل تحت طائلة (روح المغرب) . وكونت واستكتب . وارسل بعثات طلابية الى عواصم المشرق العربى ، وتوجها هو برحلته ابتداء من سنة ١٩٥٢ الى اقطار اسلامية واخرى عربية . وكانت الجمعية فى عهده اكثر صلة بالعائلة السعودية من جهة وحركة الاخوان المسلمين من جهة اخرى .

اما على المستوى الداخلى فقد استمرت الجمعية برئاسته تهاجم الطرقية وتدعو الى تطهير الدين وتطالب باحترام اللغة العربية والتعليم بها وتنادى بفصل الدين الاسلامى عن الدولة الفرنسية ، ولعبت الجمعية ايضا دورا فى الحياة السياسية كما لعبته من قبل ، واذا كان ابن باديس على صلة قوية بابن جلول خلال الثلاثينات فقد كان الابراهيمى على صلة قويةبفرحات عباس خلال الاربعينات وبداية الخمسينات حتى لقد اتهمه انصار حزب الشعب بموالاة حزب الاتحاد الديموقراطى للبيان الجزائرى ضدهم . واذا كانت الجمعية على عهد ابن باديس قد شاركت فى المؤتمر الاسلامى الجزائرى سنة ١٩٣٠ فانها فى عهد الابراهيمى قد شاركت فى (جبهة الدفاع عن الحرية الديموقراطية سنة ١٩٥١ .

وقد هبت على الجمعية عدة عواصف فى عهد الابراهيمى كما هبت عليها فى عهد ابن باديس . ومنها الازمة الخفية التى احدثها طول غياب الابراهيمى فى الشرق بين ١٩٥٢ ــ ١٩٥٤ فكان نائبه الاول (العربى التبسى) ينافسه ويتهمه باهمال شئون الجمعية فى الجزائر والانشغال عنها بشئونه الخاصة فى المشرق . يضاف الى ذلك ، التنافس الذى كان يحدث داخليا بين النائب الاول والنائب الثانى (محمد خير الدين) ، فقد استغل الاخير غياب الابراهيمى من جهة وغياب التبسى (اثناء حجه وبقائه فترة فى المشرق ايضا) وقام باعمال لصالح الجمعية رآها التبسى غير مرخص بها فى اطار قوانين الجمعية ولكن هذه الازمة ظلت كالنار فى الرماد غير معروفة الا للمقربين . اما الازمة

الثانية (او العاصفة) فهى الموقف من ثورة نوفمبر . فرئيس الجمعية كان خارج الجزائر ، وكان على الجمعية فى الداخل ان تحدد موقفها ، والاتصالات كانت شبه مقطوعة بين الجزائر والقاهرة (حيث كان يقيم الابراهيمى) . ومن جهة اخرى كان الابراهيمى تحت ضغط الظروف وكان عليه ان يعلن صراحة عن موقف الجمعية . وكان ممثلو الثورة فى القاهرة يطالبونه بذلك . بينما هو كان منقطعا عن اصحابه فى الجزائر . وقد انتهى الامر بحل الجمعية نفسها فى فاتح ١٩٥٦ وانضمام قادتها الى الثورة .

هذا عن الاصلاح الوطنى المتطرف . اما الاصلاح المعتدل فقد كان له ايضا دوره . فكان يرد غارات المهاجمين ، وكان يدعو ، فى حدود القوانين القائمة ، الى نوع من التحرر الاجتماعى ، وكانت صحفه تعالج قضايا الساعة من علوم ، واخبار سياسية ، وتنقلات ، ونشاط ثقافى . ونحو ذلك . وكان اصحابه باستثناء القلائل منهم ، يتابعون احداث الشرق الاسلامى والعربى، ويتحدثون عن الجزائر فى ذلك الاطار رغم انها طبقا للقوانين المعمول بهـا فرنسية . وكانوا يختلفون كثيرا فى وجهات نظرهم وطريقة حياتهم عن رجال الدين التقليديين الذين كانوا معتصمين بالزوايا والقباب ، ويمارسون طقوسا موروثة منذ قرون . واهم الصحف التى كانت تمثل الاصلاح المعتدل (النجاح) و (الوفاق) و (صوت المسجد) . والواقع اننا لا نريد ان نفصل القول فى هذا النوع من الاصلاح لاننا تعرضنا له فى (المدرسة المستنيرة) ، ولانه فى الحقيقة يعد استمرارا لما بدا هنـاك . والذى يهمنا هنا هو دور الاصلاح الوطنى المتطرف .

* * *

واهم ما يميز المدرسة الاصلاحية هو العروبة والشرقية والـوطنية والعلمانية ، اما العروبة فقد عرفت على يد اصحاب هذه المدرسة تقـدما كبيرا ويعود الفضل فى طرح هذه القضية على مستوى واسع الى ثقافة العقبى والابراهيمى فى المشرق من جهة واعتناق ابن باديس لفكرة العروبة من جهة اخرى . يضاف الى ذلك تبلور مفهوم العروبة فى المشرق العربى منذ الحرب العالمية الاولى والتواصل الاعلامى والشخصى بين الجزائر والمشرق بين الحربين ، والى تأثير الامير شكيب ارسلان على زعماء الجزائر خلال هذه الفترة ، ولا سيما ابن باديس ومصالى . وقد تناولنا هذا الموضوع فى عـدة مناسبات اخرى .

وبالمقارنة مع غيرها من المدارس نجد المدرسة الاصلاحية تتميز بروح شرقية قوية . فاذا كانت المدارس الاخرى (باستثناء الاولى) قد عاشـت

فى اطار الوجود الفرنسى فى الجزائر واصطبغت به وتجزارت (من الجزائر) بمقتضاه فان المدرسة الاصلاحية قد ادخلت روح الشرق الى الجزائـــر بالعيش على نماذجه وروايتها لاخباره والاحتذاء برجاله وتقليد اســاليبه الادبية والعمل بمبادئه الاصلاحية ، والنقل من صحفه واســـتقبال اهله ومراسلتهم ، والمشاركة معهمفى مجالات التخطيط بعيد المدى (الاستراتيجية) وهكذا دخل العقبى بهندامه وافكاره وقلمه الشرقى ، ودخل الابراهيمى ومعه رصيد من التقاليد الشرقية والمعارف الشخصية عن الشرق واهله ، وحمل ابن باديس ذكريات قوية عن زيارته للشرق وظهرت فى كتاباته وافكاره ونفس الشىء يقال عن مولود الحافظى ، وعن احمد رضا حوحو ، وعن العربى التبسى . وغيرهم . ومعظم هؤلاء ساهموا باقلامهم فى صـــحف ومجلات الشرق ايضا فكتب العقبى فى جريدة (القبلة) بالحجاز ، وكتب حوحو فى مجلة (المنهل) ، وكتب الابراهيمى فى عدة صحف شرقية ، كما كتب الزاهرى فى مجلة (الفتح) . وقد ادخلوا الى الجزائر المبادىء الوهابية لا سيما العقبى والافكار العبدوية ولا سيما الابراهيمى ، ودخلت عن طريقهم ايضا مبادىء الاخوان المسلمين دون ان يكونوا اتباعا لهم واحتفلوا بافراح الشرق وحزنوا لاتراحه . ولو عددنا مظاهر هـذا التواصـل بين الشرق والجزائر فى عهـد المدرسة الاصلاحية لطال بنا الحديث .

ولكن اهم ميزة تميز المدرسة الاصـلاحية ايمانها بالوطنية الجزائرية وهذا الايمان (والعمل ايضا) هو الذى جعل المعاصرين لا يفرقـــون بين الاصلاح الثقافى والدينى وبين الاصلاح السياسى . فقد جعلت المدرســـة الاصلاحية همها بعث الشخصية الجزائرية المتمثلة فى الثقافة العـــربية (اللغة ، التعليم ، التقاليد) والتعـاليم الاســلامية الصحيحة . وخلاصة هذه الـدعوة ان الجزائر التى تدعى فرنســا انها قطعة منها ، لها تاريخهـا ولغتها ودينها وابطالها وعلماؤها وتقاليدها ، وهى اذن ليست فرنسية ولا يمكن انتكون كذلك . وقد اتجه المصلحون الىالشباب باعتباره امل المستقبل وجعلوا التعليماساس حركتهم وكانمفهوم النهضة عندهم خطوتين متكاملتين الاولى ثقافية والثانية سياسية ، وكان تحرير الجزائر فى نظرهم لا يمكن الا على اساس تهيئة الشعب لتحمل مسئوليته السـياسية ، بتعليمه وتوعيته وتحرره من الاوهام والخرافات ، وايمانه بالعلم والتقدم . وتشهد كتاباتهم الكثيرة واعمالهم على هذا ، كالمدارس والمساجد والنوادى والمعهد ، والاناشيد الوطنية ونشر التاريخ الوطنى ، وغيرها .

وعلى هذا الاساس اتصفت حركتهم ايضا بالعلمانية . ذلك انهم لـم

يكونوا رجال دين بالمعنى الضيق للكلمة ، ولم يكن اصلاحهم مقتصرا على الامور الدينية . وانما كانوا اصحاب « نهضة » شعبية وطنية ، ومفهوم النهضة عندهم مفهوم علمى ـ دينى ـ تقدمى . او بعبارة اخرى كانوا يؤمنون بأن وسيلة تجديد الدين هو العلم ، وان وسيلة التقدم هو الدين القائم على العلم ، والاسلام ليس كالمسيحية مجرد طقوس وعبادات وعلاقات انسانية ولكن طريقة حياة فى الدنيا ووسيلة سعادة للآخرة ، ومن ثمة حث كثيرا على العلم والقوة وجعل الانسان الناجح افضل من الانسان الفاشل واليد العليا خيرا من اليد السفلى . وسيرا مع هذا التيار نشر اصحاب هذه المدرسة الافكار العلمانية ، ودعوا الى مجاراة العصر فى الاختراع والتقدم ، وادخلوا اولادهم الى المدارس الفرنسية ، وحثوا على تعلم اللغة الفرنسية بالاضافة الى اللغة العربية وقلدوا فى بعض ملابسهم ، وفى بيوتهم طريقة الحياة الاروبية ووقفوا مع المراة موقفا متقدما بالنسبة لوقتهم . فالتجديد عند هؤلاء كان يعنى نقد الماضى ونقد الحاضر والايمان بالمستقبل ، وكانت تشمل فى نظرهم جميع مظاهر الحياة الوطنية ، وهو ما اسميناه بالنهضة .

* * *

وقد استخدم اصحاب هذه المدرسة وسائل كثيرة ومتنوعة لنشر دعوتهم منها الصحافة التى افتتحوا بها عهدهم وركزوا عليها لنشر افكارهم . ويمكننا القول بان زعماء هذه المدرسة كانوا فى نفس الوقت مصلحين وصحفيين . فالعقبى تولى جريدة (القبلة) فى الحجاز ولعل (أم القرى) ايضا) ، ثم ساهم فى (المنتقد) و (صدى الصحراء) قبل ان يؤسس جريدته الخاصة به وهى (الاصلاح) . وقد اسهم ايضا فى (الشهاب) و (البصائر) القديمة . وابن باديس ابتدا بنشر مقالاته فى (الاقدام) ثم اسس (المنتقد) و (الشهاب) وانشا مطبعة . وكانت مقالاته يغلب عليها الطابع الصحفى . والابراهيمى ساهم فى (الشهاب) ثم انفرد (بالبصائر) الجديدة فكان قلمه فيها يتراوح بين افتتاحيات الصحف ومقالات الاديب . وابتدا احمد توفيق المدنى حياته بانشاء صحيفة فى تونس ، و (تقويم المنصور) فى تونس ثم فى الجزائر ، ثم المساهمة فى (الشهاب) (والبصائر) . ونشر الزاهرى معظم مقالات كتابه (الاسلام فى حاجة الى دعاية وتبشير) فى مجلة (الفتح) المصرية . فالصحافة عند هؤلاء كانت وسيلة رئيسية لبث مبادئهم . ولم تكن الصحافة العربية وحدها هى التى تحمل مبادىء الاصلاح بل كانت هناك صحف بالفرنسية ايضا ، وعلى راسها جريدة (الدفاع ـ لاديفانس) . التى كان يحررها الامين العمودى ، ومنها جريدة (الشباب المسلم) التى صدرت بعد الحرب العالمية الثانية .

واذا كان اصحاب الاصلاح التقليدى قد استعملوا ايضا الصحافة فان أصحاب المدرسة الاصلاحية التى نحن بصدد الحديث عنها قد تميزوا عنهم بانشاء المدارس ونشر التعليم فيها وتأسيس المساجد الحرة (غير الخاضعة لسلطة الادارة الفرنسية) وبث دروس الوعظ والارشاد على منابرها وفى حلقاتها . وبهذه الطريقة كثرت المدارس والمساجد الحرة التى أصبحت معاقل للفكر الاصلاحى وكان التعليم يقوم على زرع الروح الوطنية فى النشىء الجديد وتعليمه اللغة العربية . وكان الوعظ يقوم على توعية الجماهير وفصلها عن مراكز الطرقية التى عشعشت فى الجزائر طيلة العهد العثمانى وركدت وتعفنت فى العهد الفرنسى ، ولو عددنا المدارس والمساجد التى بنيت من أموال الشعب والتى كانت ادارتها تحت لجان محلية من افراد الشعب ـ لطالت القائمة . وحسبنا ان نذكر مدرسة التربية والتعليم فى قسنطينة والتى اسسها ابن باديس ، ومدرسة دار الحديث فى تلمسان التى اشرف على انشائها الابراهيمى ، ومدرسة الشبيبة الاسلامية بالعاصمة التى يعود الفضل فى رعايتها واحتضانها الى العقبى، ولابد من ذكر معهد عبد الحميد بن باديس ، والمعهد الكتانى وكلاهما فى قسنطينة . وكلاهما للتعليم المتوسط بالعربية . ويمكننا ان نشبه نشاط المدرسة الاصلاحية واعتمادها على الجماهير بحركة «الى الشعب» فى روسيا خلال النصف الثانى من القرن الماضى ، مع فوارق كثيرة بالطبع.

وقد اثر المصلحون تأثيرا كبيرا على الحياة الثقافية عامة . فكان لهم الفضل في نشر البيان العربى السائد عندئذ فى المشرق وتصفية اللغة العربية فى الجزائر من العجمة التى انتشرت فيها خلال عهد طويل على يد المستشرقين الفرنسيين والمترجمين العسكريين والعلماء المزدوجين الذين كانت تغلب عليهم اللغة الفرنسية بحكم منطق « الغلبة للاقوى » وقد ساهمت المدرسة الاصلاحية فى ربط الشعب الجزائرى بماضيه وتذكيره بأمجاده واحياء تراثه عن طريق الكلمة المكتوبة ، شعرا ونثرا ، والكلمة المقولة . اما الكلمة المكتوبة فقد نشرها اصحابها عن طريق الصحافة كما عرفنا ، وعن طريق الكتاب او التأليف . واما الكلمة المقولة فقد نشروها عن طريق الوعظ والارشاد فى المدارس ـ كما عرفنا ايضا ، وعن طريق تشجيع الخطابة لدى التلاميذ ، وتمثيل المسرحيات التاريخية والاجتماعية ونحو ذلك ، وبعجزنا المجال لو اننا حاولنا هنا ان نتقصى كل مظاهر هذا النشاط ورصد ابعاده . لذلك نكتفى بتلخيص بعضه .

فقد تقدم فن النثر على يد اصحاب هذه المدرسة (١) . واصبح لدينا على الاقل مدرستان لهذا النثر (مدرسة الشهاب) التى سيطر فيها قلم ابن باديس ، وهو يمتاز بالبساطة وغلبة العبارات الدينية ، و (مدرسة البصائر) التى سيطر فيها قلم الابراهيمى وتمتاز بالعناية بالبيان ، وتجويد العبارات واختيار الالفاظ . واذا شئنا الاختصار قلنا امتاز نثر المدرسة الاولى بالاسلوب الصحفى الدينى ، وامتاز نثر المدرسة الثانية بالاسلوب الادبى الاجتماعى ، وقد ظهر فى كلا المدرستين كتاب تركوا بصماتهم فى مجالات متعددة . ونذكر من المدرسة الاولى العقبى والزاهرى ، والزواوى وابو اليقظان ، ومن المدرسة الثانية المدنى ، وحوحو ، وبوكوشة ، وعاشور .

وقد ظهر النثر بنوعيه ، فى عدة اعمال تشهد بما قام به المصلحون فى ميدان التاليف من مجهود فى وقت كان فيه قراء العربية يمثلون قلة من الناس . ففى ميدان القصة والرواية ظهرت بوادر طيبة بين الحربين ازدادت نموا ونضجا بعد الحرب العالمية الثانية ، ويطول بنا الحديث لو مثلنا لهذه الانواع ، وحسبنا هنا ان نحيل على المراجع المتخصصة . واسهم اصحاب هذه المدرسة فى الكتابات التاريخية ، وخاصة تاريخ الجزائر . كما اسهموا فى الكتابات الاصلاحية وغيرها من الموضوعات الدينية ، ويتصل بالنثر ايضا تقدم الخطابة على يد اصحاب هذه المدرسة ، وقد كان تطوير الخطابة ونشرها هدفا من اهداف المدرسة الاصلاحية . وكان اخطب الجميع ، بلا منازع هو العقبى ، كما اشتهر الابراهيمى بذلك ايضا ، وممن عرفوا من خطباء الجيل الثانى الفضيل الورثلانى وعبد القادر الياجورى . وقد تركوا لنا ثروة كبيرة فى هذا الصدد . وتقدم النقد الادبى الحديث ايضا على يد اصحاب هذه المدرسة .

اما فى الشعر فقد اصبح شعراء المدرسة الاصلاحية فى مستوى شعراء المشرق العربى . ويعود الفضل فى بعث الشعر الاصلاحى الى امير شعراء المغرب العربى محمد العيد آل خليفة ، وقد عاصره عدد كبير من الشعراء ، منهم من تخصص فى نظم الشعر ولم ينشر الا نادرا ، كالهادى السنوسى ، ومفدى زكريا ، وجلواح ، وحمود ، ومنهم من جمع بين الشعر

---

(١) انظر كتابنا (دراسات فى الأدب الجزائرى الحديث) دار الآداب ، بيروت ١٩٦٦ ولعبد الله ركيبى كتاب (تطور النثر الجزائرى الحديث)، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٧٦ .

والنشر كاحمد سحنون ، وسعيد الزاهرى (١) .

وهكذا تكون المدرسة الاصلاحية قد تقدمت بالجزائر فى عدة ميادين دينية وقومية وادبية . واذا حللنا الموضوع من زاوية تطور الحركة الوطنية فى الجزائر وجدنا ان المدرســة الاصلاحية تعتبر تتويجا لجهود كثيرة بدات منذ الاحتلال الفرنسى وانتهت ببدء الثورة التحريرية . وخلال هذه الفترة ســارت المدارس الثقافية ســيرا تصاعديا . وقد انتهت فيها اللغة العربية الى الانتصار بعد ان كادت تضمحل كما عرفنا من دراستنا للمدارس السابقة. وما دامت الجزائر قد دخلت مرحلة جديدة منذ ١٩٥٤ فاولى بنا ان ننتهى عند هذا التاريخ .

* * *

(١) عالج صالح خرفى موضوع الشعر الجزائرى الحديث خاصة فى كتابه (الشعر الجزائرى الحديث) الشركة الجزائرية ، ١٩٧٥ م .